الكواكب الدرية

لشرح الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية

تأليف
العلامة الأستاذ الشيخ
محمد بن عبد العزيز بن مانع
مستشار وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية
والمنتدب منها مستشاراً فى معارف حكومة قطر العربية

طبع على نفقة المتمسك بعقيدة السلف الصالح
محمد نصيف
وشركاه
أثابهم الله خير المثوبة

مطبعة المدنى
المؤسسة السعودية بمصر
٢٩٥ شارع … – القاهرة ت ٤٠٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين

الحمد لله الذى علا فوق مخلوقاته ، واعترفت بوحدانيته جميع مصنوعاته ، وتقدس عن سمات المحدثات ، ليس له شبيه لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذى أوضح الله به سبيل الهدى ، فمن تمسك بسنتّه فقد فاز ، ومن حاد عنها فقد ضل واعتدى ، وعلى آله وأصحابه المتّقين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين .

أمّا بعد : فيقول الفقير إلى رحمة ربّه ورضوانه ، محمد بن عبد العزيز بن مانع ـ عامله الله بلطفه وإحسانه ـ لما منّ الله تعالى بإقرائى المنظومة الوحيدة المسماة (بالدرة المضية فى عقد أهل الفرقة المرضية) نظم الإمام الهمام محمد بن أحمد السفارينى ، لجماعة من الطلاب السلفيين ذوى الألباب ، رأيتها محتاجة لشرح يميط عنها حجابها ، ويعين على فهمها حُفّاظها ، وقد كنت قرأت فى تراجم بعض الأفاضل من الحنابلة ، كالشيخ العلامة حسن الشطى ، والشيخ الإمام محمد بن على بن سلوم ، وغيرهما ، أنهم قد اختصروا شرح ناظمها ، ذلك الشرح الجليل الذى سلك فيه مسلك الإطناب والتّطويل ، وحيث أنى لم أظفر بشىء من تلك المختصرات ولم يكن ـ فيما علمت ـ مشهوراً أقدمتُ مقتديا بأولئك الأئمة على اختصار شرح ناظمها وأضفت إلى ذلك فوائد كثيرة مما وجدته فى كتب المحققين ، مما يهم طالب العلم درايته ، وسميت هذا المختصر (الكواكب الدّرية ، لشرح الدّرة المضية ، فى عقد أهل الفرقة المرضية) ومن الله وحده أستمد الإعانة ، إنه خير معين .

قال الناظم مبتدئا بالبسملة : بسم الله الرحمن الرحيم ، أى : باسم مسمى هذا اللفظ الأعظم، الموصوف بأوصاف الـكمال ابتداء، والله علم للذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد لم يطلق على غيره . والرحمن الرحيم : إسمان مشتقان من رحم بجعله لازما ، أو بتنزيله منزلة اللازم ، إذ هما صفتان مشبهتان ، والرحمن: أبلغ من الرحيم ؛لأن زيادة البنام تدل على زيادة المعنى غالبا ، والرحمن فى الأصل بمعنى : كثيرالرحمة، ثم غلب على البالغ فى الرحمة غايتها ، وهو الله. والرّحيم: ذو الرّحمة الـكثيرة وأتى به بعد الرحمن الدال على جلائل النعم ، إشارة إلى أن ما دل عليه من دقائق الرحمة فيـكون كالتتمة .

قال الناظم رحمه الله تعالى :

الحمـد لله القـديم الباقى   مسبب الأسباب والأرزاق

حى عليم قادر موجـــود   قامت به الأشياء والوجود

قوله : الحمد لله ، الحمد لغة : الثناء باللسان على الجميل الاختيـاري على جهة التعظيم والتبجيل، وعرفاً : فعل ينبىء عن تعظيم المنعم على الحامد وغيره . والشكر لغة : هو الحمد اصطلاحاً ، وعرفاً : صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه ، فالحمد أعم من جهة المتعلق ؛ لأن متعلقه الفواصل ، والفضائل. فالفواصل:الصفات المتعدية كالـكرم ، والفضائل : الصفات اللازمة كالجمال وجودة الذهن ونحو ذلك . وأخص من جهة المورد ؛ لأن مورده اللسان ، والجنان فقط ، والشكر أعم من جهة المورد ؛ لأن مورده اللسان ، والجنان والأركان . قال الشاعر :

أفادتـكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

وأخص من جهة المتعلق، لأن متعلقه الصّفات الفواصل فقط ، والقديم : نعت

لله تعالى ، وهو الّذى لم يسبق وجوده عدم ، و برهانه أنه لو كان حادثا ، ولم يكن قديما ، لا فتقر هو أيضا إلى محدث ، وافتقر محدثه إلى محدث ، فأما تسلسل ذلك إلى مالا نهاية ، وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهى إلى محدث قديم هو الأول ، وذلك هو المطلوب الذى سميناه محدث العالم و بارئه. الباقى : مشتق من البقاء ، وهو امتناع لحوق العدم ، والبقاء صفة واجبة لله كما وجب له القدم ؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه .مسبب الأسباب : المتوصل بها إلى مسبباتها ، وفى نسخة: مقدر الآجال ، وهى أولى لأمرين :

الأول: أن المقدر من صفات أفعاله المعبر عنها بالفواضل ، وفى نسخة بدل الآجال : الأقدار ، وهى أعم .

والثانى : الدلالة على تقدير الآجال جمع أجل محركة غاية الوقت فى الموت ، وحلول الدين ، ومدة الشيء .

قال تعالى : ﴿ فإذا جَاءَ أَجَلُهُم لاَ يَسْتأْخِرُونَ سَاعَةً ولاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

ومقدر الأرزاق : جمع رزق ــ بالكسر ــ ماينتفع به من حلال وحرام .

حي عليم قادر موجــود قامت به الأشياء والوجود

قوله: حى، أى لم يزل موجوداً و بالحياة موصوفا ، والحياة: صفة ذاتية حقيقية قائمة بذاته تعالى . عليم بالسرائر والخفيات ، التى لا يدركها علم خلقه . قادر : أى ذو القدرة التامة . موجود : بالوجود القديم ؛ لأن العالم وكل جزء من أجزائه حادث ومفتقر من حيث وجوده وعدمه إليه تعالى . قامت : أى وجدت واستمرت به سبحانه وتعالى . الأشياء : كلها ، من الجواهر والأعراض ، وقام به الوجود لكل موجود سواه . فوجود البارى قديم ، ووجود غيره جائز محدث بأحداث الخالق الحكيم .

دلت على وجوده الحوادث   سبحانه فهو الحكيم الوارث

قوله : دلت . أى دلالة عقلية قطعية على وجوده سبحانه وتعالى . الحوادث : جمع الحادث ، وهو خلاق القديم . سبحانه : اسم بمعنى التسبيح الذى هو التنزيه . فهو تعالى الحكيم . أى : المتقن لخلق الأشياء بحسن التدبير وبديع التقدير . الوارث : أى الباقى بعد فناء خلقه .

قال تعالى : ﴿ إنا نَحنُ نَرِثُ الأرْضَ ومَنْ عَلَيها وإلينَا يُرْجعُون ﴾ .

ثم الصلاة والسلام سرمدا   على النبى المصطفى كنز الهدى

وآله وصحبه الأبرار   معادن التقوى مع الأسرار

قوله : ثم الصلاة ، هى من الله الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، ومن غيرهم التضرع ، والدعاء بخير ، والسلام : بمعنى التحية والسلامة من النقائص والرذائل .

قال ابن الجوزى : وأما الجمع بين الصلاة والسلام ، فهو الأولى ، والأكمل ، والأفضل . لقوله تعالى : ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ . ولو اقتصر على أحدهما جائز من غير كراهة . سرمدا : أى دائماً . على النبى : وهو إنسان أوحى إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه . فإن أمر بتبليغه فهو رسول أيضاً . المصطفى : أى المختار .

وفى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع مرفوعاً : «أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم » ورواه الترمذى . ولفظه : « أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش

حتى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » كنز الهدى : أى معدن الرشاد ، والصلوات والسلام على آله : أى أتباعه على دينه . ولذا قال نشوان :

آل النبى هم أتبــــاع ملّته ... من الأعاجم والسودان والعرب

لو لم يكن إله إلا قرابته ... صلى المصلّي على الطاغى أبى لهب

وعلى صحبه : إسم جمع لصاحب ، والمراد به هنا : الصحابى ، وهو من اجتمع بالنبى من مؤمن به ، ولو لحظة ، ومات على ذلك . والأبرار : جمع بار ، وهو الصادق ، والكثير البر ، والصدق فى اليمين . معادن : جمع معدن ، الموضع الذى تستخرج منه جواهر الأرض . أى : هم مستقر التقوى ، ومواضعها . والتقوى : التحرز بطاعة الله عن مخالفته ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، مع الأسرار الرفيعة ، والأحوال البديعة .

وبعد فاعلم أن كل العـــلم ... كالفرع للتوحيد فاسمع نظمى

لأنه العــلم الذى لا ينبغى ... لعاقل لفهمــه لم يبتــغ

قوله : وبعد . هذه كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى غيره . أى : بعد الحمد له ، والصلاة والسلام . فاعلم : أمر من العلم ، وهو صفة يميز المتصف بها بين الجواهر والأعراض . أن كل العلم : أى سائر العلوم الشرعية ، وكذا العقلية ، كالفرع لعلم التوحيد المتفرع عليه ، والناشىء عنه .

والتوحيد ثلاثة أقسام :

توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، وتوحيد الصفات .

فتوحيد الربوبية : أنّ لا خالق ، ولا رازق إلا الله .

وتوحيد الإلهية : إفراده تعالى بالعبادة .

وتوحيد الصفات : أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم نفياً وإثباتاً .

فاسمع : سماع فهم وإذعان . نظمي : لأمهات مسائله . لأنه : أي ـ علم التوحيد ـ العلم العظيم . الذى لاينبغى : أي لايحسن لشخص بالغ عاقل من بنى آدم ذكراً أو أنثى . لفهمه : أي إدراك صور معرفته فى ذهنه . لم يبتغ : أي لم يطلبه ليكون فى إيمانه على بصيرة .

فيعلم الواجب والمحالا   كجائز فى حقه تعالى

قوله : فيعلم الواجب . أي يجب شرعاً على كل مكلف أن يعرف ما يجب لله تعالى ، وهو مالا يتصور فى العقل عدمه كوجوده تعالى ، ووجوب قدمه ، ويعلم المحالا : وهو مالا يتصور فى العقل وجوده كالشريك له تعالى . كما يجب على كل مكلف أن يعلم لكل حكم جائز ، وهو مايصح فى نظر العقل وجوده وعدمه على السواء ، كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب فى حقه . تعالى وتقدس . مثل ذلك لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم . وسيأتى تفصيل ذلك فى محله .

وصار من عادة أهل العلم   أن يعتنوا فى سبر ذا بالنظم

لأنه يسهل للحفظ كما   يروق للسمع ويشفى من ظما

قوله : وصار . أي فى هذه الأزمنة . من عادة أهل العلم بالسنة . أن يعتنوا : أي يشتغلوا ويهتموا . فى سبر : أي تتبع . ذا : أي هذا العلم بالنظم لسهولة حفظه . ولهذا قال : لأنه . أي المنظوم . يسهل : أي يلين للحفظ ، والعلوق فى الحافظة ، كما أنه يروق : أي يحسن للسمع لكونه ينبسط له ويلتذ بسماعه . ويشفى : أي يبرئ . من ظما : أي عطش ، واشتياق إلى معرفة أصول علم التوحيد ، وفيه استعارة مصرحة .

فمن هنا نظمت لى عقيدة أرجوزة وجيزة مفيدة
نظمتها فى سلكها مقدمة وست أبواب كذاك خاتمة

قوله : فمن هنا . أى : من أجل ما ذكرنا من فائدة النظم . نظمت : أى ألفت لى ولمن كان مثلى من متبعى السلف الصالح . عقيدة : سلفية أثرية . أرجوزة : أى من بحر الرجز ، أحد بحور الشعر الستة عشر . وجيزة : أى قليلة الألفاظ ، ولكنها كثيرة المعانى . مفيدة : أى مربحة من قرأها . نظمتها : أى نظمت مسائلها . فى سلكها : أى خيطها . مقدمة ـ بكسر الدال ـ على الأفصح . وست أبواب : جمع باب ، وهو فى العرف : اسم لطائفة من العلم يشتمل على فصول وفروع ومسائل غالباً . كذاك : يشتمل أيضاً على خاتمة وهى عاقبة الشيء وآخرته .

وسمتها بالدرة المضية فى عقد أهل الفرقة المرضية

قوله : وسمتها من السمة وهى العلامة . أى أسميتها ـ يعنى عقيدته ـ بالدرة : أى اللؤلؤة . المضية : أى المنورة . فى عقد : أى اعتقاد . أهل الفرقة : أى الطائفة المرضية فى اعتقادها .

على اعتقاد ذى السداد الحنبلى إمام أهل الحق ذى القدر العلى
حبر الملا فرد العلى الربانى رب الحجى ماحى الدجى الشيبانى

قوله : على اعتقاد . متعلق بنظمت ، والاعتقاد حكم الذهن الجازم ، فإن كان مطابقاً للواقع فهو صحيح ، وإلا فهو فاسد . وذى : بمعنى صاحب . والسداد ـ بفتح السين المهملة ـ أى القصد فى الدين والاستقامة ، والمراد به : إمامنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل المروزى ، ثم البغدادى الحنبلى : نسبة إلى جدّه أبى أبيه حنبل . إمام أهل الحق : الذين هم الفرقة الناجية لاعتصامهم بالكتاب والسنة .

ذى : أى صاحب . القدر : أى المقدار . العلى : أى المرتفع لكثرة فضائله .

قال الإمام الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أحداً أتقى ولا أورع ، ولا أفقه ، ولا أعلم من أحمد بن حنبل .حبر الملا :الحبر ـ بفتح الحاء المهملة وكسرها وسكون الموحدة ـ العالم المتقن ، والملا :أشراف الناس .فرد : أى واحد. العلا:السامية . الربانى :هو الذى يربى بصغار العلم قبل كباره ، كما فى صحيح البخارى.

وقال ابن عباس : الربانى : هو المعلم أخذه من التربية . أى يربى الناس كما يربى الطفل أبوه . رب : أى صاحب الحجىٰ : أى العقل . ماحى بنور السنّة الدُّجى : أى ظلمة البدعة . الشيبانى : نسبة إلى شيبان أحد أجداده .

فإنه إمام أهل الأثر فمن نحا منحاه فهو الأثرى

قوله : فإنه : أى الإمام أحمد ـ رضى الله عنه ـ إمام وقدوة . أهل : أى أصحاب . الأثر : يعنى الذين يأخذون عقيدتهم من المأثور عن الله فى كتابه ، أو فى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، أو ماثبت عن السلف الصّالح من الصحابة والتابعين . فمن : أى الإنسان . نحا : أى قصد . منحاه : أى مقصده ومذهبه فهو : أى ذلك الذاهب مذهب أحمد الذى هو أحمد ، ومذهب فهو الأثرى المنسوب إلى العقيدة الأثرية ، ويعرف بمذهب السلف وعليه اعتقاد الأئمة المعتبرين كالأئمة الأربعة وغيرهم ، من كل إمام معتبر حتى الأشعرى تاب من عقيدته التى كان عليها ، ورجع إلى مذهب السلف ، كما صرح هو بذلك فى كتاب الإبانة .

وأما المنتسبون إليه الآن ،فقد رماهم الله بالجهل،حتى اعتقدوا التجهم من حيث لايشعرون ، وإنما نسب هذا المذهب الأحمدى لإمامنا أحمد ـ رضى الله عنه ـ لأنه هو الذى قاوم أهل البدع ، حتى أظهره الله عليهم ونصر به دينه . كما قال على ابن المدينى : إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث : أبو بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

قال أبو حاتم : إذا رأيت الرجل يحب الإمام أحمد بن حنبل . فاعلم أنه صاحب سنة] .

وقال على بن أعين رحمه الله :

أضحى ابن حنبل حجةمبرورة ... وبحب أحمد يعرف المتنسك

وإذا رأيت لأحمد متنقصا ... فاعلم بأن ستوره ستهتك

قال عبد الوهاب الوراق : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل .قالوا له : وأى شىء بان لك من فضله وعلمه على سائر من رأيت ؟ قال : رجل سئل عن ستين ألف مسألة ، فأجاب فيها بأن قال : حدثنا ، وأخبرنا ، وروينا .

وإلى هذا أشار الإمام الصرصرى فى لاميته بقوله يمدح الإمام أحمد رضى الله عنه :

حوى ألف ألف من أحاديث أسندت

وأثبتها حفظا بقلب محصل

أجاب على ستين ألف قضية ... بأخبرنا لا عن صحائف نقل

وهذه منقبة لايعلم أحد من الأئمة فعلها ، وقد سئل كثير منهم عن معشار عشر ذلك ، فأحجم عن الجواب عن أكثرها .

وقال على بن المدينى : اتخذت أحمد إماما فيما بينى و بين الله ، ولد سيدنا الإمام أحمد فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ببغداد ، وتوفى نهار الجمعة من شهر ربيع الأول لاثنتى عشرة ليلة خلت منه سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وغسله المروزى ــ رحمه الله تعالى .

سقى ضريحا حله صوب الرضا والعفو والغفران ما نجم أضا

وحله وسائر الأئمة منازل الرضوان أعلى الجنة

قوله : سقى ضريحا . أى قبراً . حله : أى سكنه الإمام أحمد . صوب: فاعل سقى . أى غيث . الرضا : أى رضوان الله تعالى . وصوب العفو والصفح من الله ، والغفران : أى ستر الذنوب ، والتجاوز عنها . ما نجم : أى كوكب . أضا : أى استنار . وحله : أى سيدنا الإمام أحمد . وسائر : أى بقية الأئمة من علماء الأمة . منازل الرضوان من الله تعالى . أعلى الجنة : أى الدرجات العالية ، وأعلى يجوز أن يكون مرفوعا ، خبر المبتدأ محذوف تقدير التى هى أعلى الجنة ، وأن يكون منصوبا على البدلية ، أو مفعولا لفعل محذوف تقديره أعنى . والله أعلم .

مقدمة

فى ترجيح مذهب السلف على مذهب الخلف

وهى اسم فاعل من قدم بمعنى تقدم . وهى قسمان :
مقدمة علم ، ومقدمة كتاب .

فمقدمة العلم : مايتوقف الشرع فيه عليها ، كمعرفة حده ، ورسمه ، وموضوعه ، وغايته .

ومقدمة الكتاب : تقال لطائفة من كلامه قدمت أمام المقصود منه لارتباط بها وانتفاع بها فيه ، وما هنا من هذا القبيل .

إعلم هديت أنه جاء الخبر عن النبي المقتفي خير البشر
بأن ذي الأمة سوف تفترق بضعا وسبعين اعتقادا والمحق
ما كان فى نهج النبي المصطفى وصحبه من غير زيغ وجفا

قوله : اعلم :فعل أمر . وهديت : جملة دعائية . أنه : أى الأمر والشأن . جاء الخبر : يعنى الحديث . عن النبى المقتفى : أى المتبع خير البشر ، بل جميع الخلق صلى الله عليه وسلم . بأن ذى : أى هذه الأمة المحمدية . سوف : أى ستفترق فيما بعد . بضعا :أى إلى بضع وسبعين فرقة ، والبضع: مابين الثلاثة إلى التسعة. اعتقادا: أى افتراقهم لأجل الاعتقاد ، وإنما المحق من جميعها طائفة واحدة ، وهى ما كان سيرها فى نهج : أى منهج النبى المصطفى ، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونهج صحبه – رضوان الله عليهم– من غير زيغ : أى ميل وانحراف ومن غير جفا – بالجيم – أى تجاف عن هديهم ، والجفاء – بالمد – نقيض الصلة ، ويقصر والمشار إليه فى البيتين ، هو مارواه الترمذى عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « ليأتين على أمتى كما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى أن كان منهم من أتى أمه علانية لـكان فى أمتى من يصنع ذلك ،وأن بنى إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة . قالوا : ما هى يارسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى ــ وفى لفظ ــ هى ما كان على ما أنا عليه وأصحابى » .

وليس هذا النص جزماً يعتبر فى فرقة إلا على أهل الأَثر

قوله : وليس هذا النص . أى المذكور . جزماً : أى من جهة الجزم واليقين . يعتبر فى فرقة : أى لاينطبق ولا يصدق على واحدة من الثلاث والسبعين . إلا على : على فرقة أهل الأثر ، وما عداهم من سائر الفرق ، فقد حكموا العقول الفاسدة ، وخالفوا المنقول عن معدن النبوة الذى لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

فاثبتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه

قوله : فاثبتوا ــ يعنى أهل الأثر ــ النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، متمسكين بالتنزيه لله تعالى ،من غير تعطيل للصفات الواردة فى الـكتاب والسنة ، وهو نفيها عنه تعالى ، فإن المعطلين لم يفهموا من أسمائه تعالى وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات ،فجمعوا بين التمثيل والتعطيل ، بخلاف سلف الأمة ، فإنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تشبيه ــ تعالى الله عن ذلك ــ فإنه قال فى كتابه : ﴿ليس كَمِثْلِهِ شىء وهو السميع البصير﴾ فرد على المشبهة بنفى المثلية ، ورد على المعطلة بقوله : ﴿وهُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾ . ويرحم الله الإمام ابن القيم حيث قال فى نونيته :

لسنا نشبِّه وصفه بصفاتنا إِن المشبّه عابد الأَوثان

كلاّ ولا نخليه من أوصافه   إن المعطل عابد البهتان

من مثّل الله العظيم بخلقه   فهو النسيب لمشرك نصرانى

أو عطل الرحمن عن أوصافه   فهو الكفور وليس ذا إيمان

فكل ما جاء من الآيات   أوصح فى الأَخبارعن ثقات

من الأَحاديث نمره كما   قد جاءفاسمع من نظامىواعلما

قوله : فكل ما جاء ـ أى عن الله تعالى ـ من الآيات القرآنية أوضح مجيئه فى الأخبار بالأسانيد الصحيحة بخلاف الضعيفة ، فإن وجودها كعدمها ، فلابد من أن تكون الأخبار عن رواة ثقات فى النقل من الأحاديث والآثار مما يوهم تشبيهاً ، فهو من المتشابه الذى لايعلمه إلا الله ، نؤمن به و بأنه من عند الله ونمره ، كما قد جاء عنه تعالى أو عن رسوله ، فمذهب السلف عدم الخوض فى هذا ، والسكوت عنه ، وتفويض علمه إلى الله .

قال ابن عباس : هذا من المكتوم الذى لايفسر ، وكذا قال غيره من الصحابة والتابعين ، وأما أهل التأويل فأبوا إلا أن يفسروا و يؤولوا حتى خالفوا سلف الأمة وأئمتها ، وابتدعوا فى ذلك ، وكل بدعة ضلالة . فاسمع سماع إذعان من منطوق نظامى ومفهومه . واعلما : أى اعلم ذلك علم تحقيق ، والألف بدل عن نون التوكيد الخفيفة .

ولا نرد ذاك بالعقول   لقول مفتر به جهول

فعقدنا الإثبات يا خليلى   من غير تعطيل ولا تمثيل

قوله : ولا نرد ذاك . أى الوارد فى الكتاب والسنة . بالعقول : بضرب من

التأويل ، لأجل قول إنسان مفتر : أى كاذب به . أى بذلك القول جهول لمخالفة المنقول والمعقول ، فعقدنا أهل السنة والجماعة الإثبات للأسماء والصِّفات كما وردت .ياخليلى :من الخلة ، وهى نهاية المحبّة ، والمراد به هنا :الموافق على مذهب السّلف من غير تعطيل لها عن حقائقها ، ولا تمثيل لها بصفات المخلوقين . فالممثل يعبد صنما ،والمعطل يعبد عدماً ،والمثبت يعبد رب الأرض والسماء .

فكل من أول فى الصفات كذاته من غير ما إثبات
فقد تعدى واستطال واجترى وخاض فى بحر الهلاك وافترى

قوله : فكل من أوّل فى الصّفات . أى الثابتة لله تعالى ، والمراد بالتأويل هنا : أن يراد باللفظ مايخالف ظاهره ،أو صرف اللفظ عن ظاهره لمعنى آخر ، أو عن حقيقته لمجاز ، وهو فى آيات الصّفات من المنكرات عند أئمة الدين ، فحيث أثبتنا ذاتاً لاتشبّه الذوات ،فما المانع من إثبات صفات لاتشبه صفات المحدثات. فالكلام فى الصّفات فرع الكلام فى الذات ، فصفاته تعالى قديمه ثابتة كذاته تعالى ، فليس لنا أن نتأول فى الصفات ولا فى الذات من غير ما إثبات عن صاحب الشرع وأصحابه . وما :زائدة لتأكيد النفى .فقد تعدى ذلك المؤول طوره واستطال على السلف . واجترى : أى تشجع واختتات حده فى ترك الأتباع للسلف الصالح . وخاض : أى اقتحم . فى بحر الهلاك : أى الموت . وافترى : أى كذب على الله بتحريفه ، وتمثيله ، وتعطيله ، وتأويله ، ولله در القائل .

وقصارى أمرِ من أوّل إن ظنوا ظنونا
فيقولون على الرحمن مالا يعلمــــونا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فى الفتوى الحموية بعد كلام مفيد : ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم بالله من السالفين ، كما يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف ،بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به

حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، فإن هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده فى غاية الجهالة ، بل فى غاية الضلالة . ا هـ المراد .

ألم تر اختلاف أصحاب النظر فيه وحسن ما نحاه ذو الأثر
فإنهم قد اقتدوا بالمصطفى وصحبه فاقنع بهذا وكفى

قوله : ألم تر اختلاف أصحاب النظر . يعنى : نظّار المتكلمة من سائر الفرق ، ورد بعضهم على بعض . فيه : أى فى نظرهم ، فيزعم كل فريق أنه محق ، فيأتى الآخر فينقض كلامه ويبطله ويرميه بالزندقة والإلحاد ، فكل فرقة تضلل الأخرى . وما أحسن ما قيل :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقا وكلٌّ كاسر مكسور

وألم تر حسن ما : أى المذهب الذى ذهبه والمنحا الذى نحاه : أى قصده . ذو : أى صاحب الأثر من سلوك الصراط المستقيم . فإنهم : أى أهل الأثر قد اقتدوا فيما اعتقدوه بالنبى المصطفى صلى الله عليه وسلم واقتدوا من بعده بصحبه الذين صحبوه ، ونقلوا عنه الشريعة بخلاف أهل التعطيل ، فإنهم قد اقتدوا بتلامذة اليهود والمشركين ، وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه فى الإسلام أنه قال : إن الله سبحانه ليس على العرش حقيقة ، وإنما استوى بمعنى استولى: الجعد ابن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها ، فنسبت مقالة الجهمية إليه .

وقد قيل : إن الجعد أخذها عن إبان بن سمعان ، وأخذها إبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم الساحر ، الذى سحر الرسول صلى الله عليه وسلم . ذكر ذلك شيخ الإسلام فى الحموية وغيرها من كتبه المفيدة النافعة . فاقنع : أى ارض بهذا البيان ، وكفى بأئمة السلف قدوة ، فقد تبين أنهم اقتدوا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن خالفهم فقد اقتدى بتلامذة اليهود ، والمشركين ، وضلال الصابئين كما تقدم .

الباب الأول

فى معرفة الله تعالى

أول واجب على العبيد معرفة الإله بالتسديد
بأنه واحـــد لا نظير له ولا شبه ولا وزير

قوله : أول واجب . أى شرعا . على العبيد : جمع عبد ، والمراد به المكلف بالنظر معرفة الإله سبحانه وتعالى ، وهى عبارة عن معرفة وجوب وجود ذاته بصفات الكمال فيما لم يزل ولا يزال دون معرفة حقيقة ذاته وصفاته ، لاستحالة ذلك . بالتسديد : أى التقويم . يعنى : بالنظر الصائب فى الوجود والموجود والنظر يجب قبلها لتوقفها عليه ، فهو أول واجب لغيره ، ثم اعلم أن الناظم ــ رحمه الله تعالى ــ وافق من يقول : إن معرفة الله تعالى نظرية ، والصحيح : أنها فطرية ضرورية . قال تعالى : ﴿ فأقم وجْهَكَ للدِّين حَنيفاً فطرة الله التى فَطَرَ النَّاس عليها لا تَبدِيل لخلقِ الله ذلك الدِّين القَيِّم ولـكِن أكثر النَّاس لا يعلمُون ﴾ .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعاً : « كل يولد على فطرة » الحديث ــ وفى صحيح مسلم عن عياض الأنصارى فى الحديث القدسى : « خلقت عبادى حنفاء مسلمين » الحديث .

فالفطرة المراد بها : الإسلام ، كما قاله : أبو هريرة ، وأبى شهاب . وسئل مجاهد عن الفطرة فقال : هى الإسلام . وكذا قال قتادة . ثم قال مجاهد : لا تبديل لخلق الله . قال : لا تبديل لدين الله . وقاله سعيد بن جبير ، وقتادة ، والنخعى . وكلام السَّلف فى ذلك كثير يصعب استيفائه .

قال الإمام أحمد فى رواية المروزى : معرفة الله تعالى فى القلب تتفاضل

وتزيد . وهذا يدل على أن المعرفة أصلها فى القلب فطرّية ، ثم إنها تزيد وتتمكن بتظاهر الأدلة .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة : ذهب طوائف من النظار إلى أن معرفة الله واجبة ،ولا طريق إليها إلا بالنظر ،فأوجبوا النّظر على كل أحد . وهذا القول إنما اشتهر فى الأمة عن المعتزلة ، ونحوهم . ولهذا قال أبو جعفر السمنانى وغيره إيجاب الأشعرى :النظر فى المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رضى الله تعالى عنه ــ والذين أوجبوا النظر ليس معهم ما يدل على عموم وجوبه ، إنما يدل على أنه قد يجب . فإنهم قالوا : الواجب لايحصل إلاّ به ، لقوله تعالى: ﴿ قُلِ انظرُوا ماذا فى السَّموات وَالْأَرْض وما تُغنى الآياتُ والنُّذُر ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إنما أَعِظكم بواحدة أَنْ تقومُوا لله مَثنى وفرادَى ﴾ . وقوله : ﴿ فليَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِق ﴾ . فهذه النصوص خطاب مع المتكبرين الجاحدين ، فأمروا بالنظر ليعرفوا الحق و يقروا به .

قال بعض العلماء : يجب النظر فى حال دون حال ، وعلى شخص دون شخص . فوجوبه من العوارض لا من اللوازم العامة ، فيجب على من فسدت فطرته واحتاج إلى النظر ، وأما من حصلت له المعرفة بدون النظر ولم تفسد فطرته فليس واجب عليه . والله أعلم .

ومن أراد تحقيق هــذه المسألة فعليه برسالة العلامة الشيخ محمد بن محمد ابن محمد المنبجى تلميذ ابن قاضى الجبل ، فقد كتب رسالة خاصّة فى الـكلام على الفطرة ، أفاد فيها وأجاد . وكذا شرح الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيميّة ،وغالب مؤلفاته ــ رحمه الله ــ فيجب على كل مكلف أن يعرف الله تعالى بصفات الكمال ، و يجزم بأنه سبحانه وتعالى واحد لايتجزأ ولا ينقسم ، أَحَدٌ لامن عددٍ. فردٌ صمد . لا نظير : أى لا مثيل له ولا شبه له فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ،

ولا شريك له فى ملـكه . ولا وزير : أى معين له . تعالى الله عن ذلك عُلوا كبيراً .

صفاته كـذاته قديمة أسماؤه ثابتة عظيمة
لـكنها فى الحق توقيفية لنا بذا أدلة وفيّة

قوله : صفاته جلّ جلاله . أى الذاتيّة ، والفعلية ، والخبرية . كذاته عز شأنه قديمة : لا ابتداء لوجودها ، ولا انتهاء لها . أسماؤه : سبحانه ثابتة بالنص والعقل . عظيمة : وصفها بذلك لـكونها معظمة موصوفة بأنها حسنى ، والمراد بأسمائه تعالى ما دل على مجرد ذاته كالله أو باعتبار الصفة كالعالم ، والقادر ، ولأسمائه الحسنى اعتباران .

أحدهما : من حيث الذات .

والثانى : من حيث الصفات ، فهى بالاعتبار الأول مترادفة ، و بالاعتبار الثانى متباينة . لـكنها : أى الأسماء الحسنى فى القول الحق المعتمد ، توقيفية بنص الشرع وورود السمع بها ، فلا يطلق على الله إلا ما أطلقه على نفسه ، أو أطلقه عليه رسوله صلى الله عليه وسلم لنا معشر أهل السنة . بذا : أى باعتبار ثبوت التوفيق فى أسماء البارى . أدلة : جمع دليل ، وفيّة : عالية توفى بالمقصود ؛ لأن ما لم يثبت عن الشارع لم يكن مأذوناً فى إطلاقه عليه ، والأصل المنع حتى يقوم دليل الإذن ، فإذا ثبت كان توقيفياً .

له الحياة والـكلام والبصر سمع إرادة وعلم واقتدر
بقدرة تعلقت بممكن كذا إرادة فعى واستبن
والعلم والـكلام قد تعلقا بكل شىء يا خليلى مطلقاً
وسمعه سبحانه كالبصر بكل مسموع وكل مبصر

قوله : له سبحانه الحياة ، وهى صفة ذاتية ثبوتية قديمة أزلية تقتضى صحة العلم والقدرة لاستحالة قيامهما بغير الحى . والحياة فى حقه لايجوز أن تكون بمعنى الحياة فى حقنا ؛لأنها فى حقنا قوة تتبع اعتدال النوع ، وهذا فى حقه محال ، وهى لاتتعلّق بشىء لا موجود ، ولا معدوم . والكلام : أى يجب الجزم بأنه متكلم بكلام قديم ذاتى وجودى غير مخلوق ، ولا محدث ، ولا حادث ، ولا يشبه كلام الخلق ، منه بدا ، و إليه يعود . ومعنى قولهم منه بدا : أى هو المتكلم به لم يخلقه فى غيره ولم يرد السلف أنه كلام فارق ذاته ، بل هو صفة له لا تفارقه ، ومعنى قولهم و إليه يعود : أن القرآن يسرى به حتى لا يبقى فى المصاحف منه حرف ، ولا فى القلب منه آية ، كما جاء ذلك فى الآثار ، وصفة الكلام صفة ذات وفعل ،فهو تعالى متكلّم و يتكلّم بمشيئته وقدرته بحرف وصوت .

قال الحافظ بن حجر : ومن نفى الصوت يلزمه أن الله تعالى لم يسمع أحداً من ملائكته ولا رسله كلامه ،بل ألهمهم إياه إلهاماً . ثم اعلم أن بعض الأغبياء ممن أعمى الله بصيرته نسب إلى الحنابلة أنهم يقولون :إن كلامه سبحانه عرض من جنس الأصوات والحروف وهو مع ذلك قديم . وهذا كذب عليهم لم يقله أحد من أتباع الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ وأعظم فرية من ذلك : أن بعض الجهمية نسب إلى الحنابلة أنهم يقولون بقدم الأوراق والجلد والماد ، وهذا من جنس ما قبله فلا تغتر به . قال الإمام ابن القيم الحنبلى فى نونيته :

وكذلك القرآن عين كلامه الـ مسموع منه حقيقة ببيان

هو قول ربى كله لا بعضه لفظاً ومعنى ما هما خلقان

تنزيل رب العالمين وقوله للفظ والمعنى بلا روغان

لكن أصوات العباد وفعلهم كمدادهم والرق مخلوقان

فالصوت للقارى ولـكن الـكلا م كلام رب العرش ذى الإحسان
هذا إذا ما كان ثم وساطة كقراءة المخلوق للقرآن
فإذا انتفت تلك الوساطة مثل ما قد كلم المولود من عمران
فهنالك المخلوق نفس السمع لا شىء من المسموع فافهم ذان

ويجب له سبحانه البصر ، وهو صفة قديمة قائمة بذاته يتعلّق بالمبصرات ، فيدرك بها إدراكاً تامًا لا على سبيل التخيل والتوهم ، ولا على سبيل تأثر حاسة ، وكذا يجب له تعالى سمع ، وهو صفة قديمة يتعلّق بالمسموعات وإثبات هاتين الصفتين ــ أعنى السمع والبصر ــ للدلائل السمعية ، وهما صفتان زائدتان على الذات ، وليسا راجعين إلى العلم بالمسموعات والمبصرات ، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم . قال تعالى ﴿ إنَّ اللهَ كان سميعاً بصيراً ﴾ .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفرٍ ، فكنا إذا علونا كبّرنا . فقال: « اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً » ويجب له جل وعلا إرادة . ويرادفها : المشيئة ، وهما عبارتان عن صفة فى الحى توجب تخصيص أحد المقدورين فى أحد الأوقات بالوقوع ، مع استواء نسبة القدر إلى الكل ، ويجب له عز وجل علم : أى يجب الجزم بأنه تعالى عالم بعلم واحد قديم ذاتى محيط بكل معلوم ، كلى أو جزئى على ما هو عليه ليس بضرورى ، ولا كسبى ، ولا نظرى ، ولا استدلالى ، ويجب له تعالى قدرة ، وأشار إليها بقوله : واقتدر جلّ شأنه على إيجاد الموجودات ، وخلق الممكنات ، وهى صفة أزلية تؤثر فى المقدورات عند تعلقها بها . واعلم أن أهل السنة يثبتون لله تعالى ماأثبته لنفسه من الصفات ، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يحصرون ذلك بعدد . وأما المتكلمة الصفاتية : فيثبتون لله تعالى سبع صفات ،

وهى التى ذكرها المصنّف بقوله : له الحياة ، والـكلام ، والبصر ـ الأبيات ، ثم أعقب ذلك بذكر متعلقاتها فقال : تعلّقت قدرته تعالى الأزلية القديمة الذاتية بكل ممكن ، وهو ما ليس بواجب الوجود ، ولا مستحيل الوقوع ، ولم يوجد شيء ولن يوجد إلا بها . كذا إرادة : أى مثل القدرة فى التعلق بالممكنات . الإرادة : وهى والقدرة غير متناهية المتعلقات ، إلا أن تعلق القدرة بالممكنات ، تعلق إيجاد أو إعدام وتعلق الإرادة بها ، تعلق تخصيص . قال تعالى: ﴿ إنما أَمْرُه إِذَا أرادَ شيئاً أن يقُول لَه كن فيكُون ﴾ .

فعى : أمر من وعاه يعيه ـ بمعنى حفظه وجمعه . أى اجمع حواشى هذا الكلام واحفظه ، و إثبات الياء لضرورة الشعر . واستبن : أى اطلب البيان من مظانه ، و إنما أمر بالجمع والحفظ وطلب البيان ، لاشتمال المقام على غموض، ولـكثرة النزاع فيه . والعلم : أى علم الله تعالى . والـكلام : أى كلامه سبحانه . قد تعلقا بكل شيء من الجائزات والواجبات والمستحيلات ، ومعنى تعلق بالمستحيلات علمه باستحالتها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رضى الله عنه ـ إن علم الله السابق محيط بالأشياء على ماهى عليه ، ولا محو فيه ، ولا تغيير ، ولا زيادة ، ولا نقصان ، فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يـكون ، وما لا يـكون لو كان كيف كان يـكون . قال : وأما ما جرى به القلم فى اللوح المحفوظ ، فهل يـكون فيه محو و إثبات على قولين للعلماء ؟ وقال : وأما الصحف التى بيد الملائكة فيحصل فيها المحو والإثبات . ياخليلى : أى صديقى . مطلقا عن التقييد بواحد من الثلاثة : الواجبات ، والجائزات ، والمستحيلات ، بل يعمها جميعها . وسمعه سبحانه وتعالى ، كالبصر منه جل شأنه يتعلق بكل شيء مسموع و بصر يتعلق بكل شيء مبصر . فهو تعالى سميع بصير ـ يعنى أن هاتين الصفتين متحدتا المتعلق فيتعلقان بالموجود واجبا كان أو ممكنا ، عينا كان أو معنى ، كليا كان أو جزئيا ، مجردا كان أو ذا مادة ، مركبا أو بسيطا .

فصـــــل

في مبحث القرآن العظيم ، والـكلام المنزل القديم

اعلم أن مذهب السلف الصالح فى القرآن أنه كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدا و إليه يعود ، تكلم به الله صدقا ، وسمعه منه جبريل حقا ، و بلغه محمداً وحياً ، ولهذا قال :

وإن ما جاء مع جبريل ... من محكم القرآن والتنزيل

كلامه سبحانه قـــديم ... أعى الورى بالنص يا عليم

وليس فى طوق الورى من أصله ... أن يستطيعوا سورة من مثله

قوله : وإن . أى ونجزم أن ما : أى الوحى والـكلام الذى جاء من الله تعالى مع جبريل ، المَلَك المـكرم ، أمين الله على وحيه لأنبيائه ورسله ، من محكم القرآن العظيم ، والتنزيل . أى : أنزله الله تعالى على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل ، فهو عطف مرادف كلامه سبحانه وتعالى قديم حروفه ومعانيه غير مخلوق ، وقد أخبر تعالى بتنزيله وشهد بإنزاله . فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القُرآنَ تنزيلاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لـكنَّ الله يَشْهد بما أُنزلَ إليكَ أنزَلَهُ بِعِلْمِه وَالملاَئِـكة يَشهدُون وَكَفَى باللهِ شَهِيداً ﴾ . والآيات فى ذلك أكثر من أن تحصى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ فى قاعدته التى فى بيان أن القرآن كلام الله تعالى ليس شيء منه كلاما لغيره ، لا جبريل ، ولا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا غيرهما قال : وفى قوله تعالى : ﴿ مُنزَّلٌ من ربِّك ﴾ دلالة على بطلان قول من يقول : إنه كلام مخلوق خلقه فى جسم من الأجسام المخلوقة ، كما هو قول الجهميين الذين قالوا بخلق القرآن .

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ القرآن كيف تصرف فهو غير مخلوق ، ولا نرى القول بالحكاية والعبارة ، وغلط من قال بهما وجهله . أعنى : أى عجز الورى من الإنس والجن بالنص القرآنى.ياعليم : مبالغة عالم تمم به البيت .قال الله تعالى: ﴿ لئِنْ اجتمعَت الإنْسُ والجن عَلَى أَنْ يأْتُوا بمثْلِ هَذَا القُرآن لاَ يأْتُون بمثْله ولوْ كانَ بعضُهُمْ لِبعْضٍ ظَهيراً ﴾ .

وليس فى طوق الورى : أى ليس فى وسع الخلق وطاقتهم . من أصله : أى الورى أن يستطيعوا الإتيان بأقصر سورة من مثله : أى القرآن ، وفى قوله : وليس فى طوق الورى من أصله إلخ . . . إشارة إلى أن القرآن معجز فى نفسه خلافاً لمن يقول بالصرفة ،وهو أن الله صرف قلوب العباد عن معارضة ، وهذا القول أضعف ما قيل فى وجوه إعجاز القرآن ، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى .

فصـــل

فى ذكر الصفات التى يثبتها لله أئمة السلف دون غيرهم من الخلف

اعلم أن الذى عليه أهل السنة والجماعة قاطبة ، متقدمهم ومتأخرهم ، إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسه ، ووصفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مايليق بجلال الله وعظمته ، إثباتا بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى : ﴿ ليْسَ كمثلِه شَىءٌ وَهُو السَّميعُ البَصِير ﴾ وأنَّ الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات ، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتا حقيقية لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين، فله صفات لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، أو أوّله على غير ما ظهر من معناه ، فهو

جهمى قد اتبع غير سبيل المؤمنــين ، ولما كان فى إثبات بعض الصفات ما يبدر للعقول الفاسدة ما يوهم التجسيم قدم أمام ذلك ما ينفيه فقال :

وليس ربنـا بجوهر ولا عرض ولا جسم تعالى ذو العلا

قوله : وليس ربنا تعالى بجوهر: يراد به ما قابل العرض وهو عند المتكلمين : الجزء الذى لا يتجزأ . أى : الجوهر الفرد . وعند الفلاسفة و بعض محققى النظار : لا وجود للجوهر الفرد ، و إليه ميل شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ أو ابن القيم ــ قدس الله سره ــ ولا عرض ، وهو مالا يقوم بذاته بل بغيره بأن يــكون تابعاً لذلك الغير فى التحيز و إلا لــكان ممــكنا ؛ لأن العرض كل موجود يحدث فى الجواهر والأجسام كالألوان والطعوم والروائح ، ولا جسم ؛ لأن الجسم متركب ومتحيز ، وذلك أمارة الحدوث ، تعالى وتقدس ذو العلا فى ذاته العلية ، وصفاته القدسية عما يقول الظالمون علوا كبيراً .

قال بعض الأئمة : جمع أهل الحق جميــع ما قيل فى التوحيد فى كلمتين :

إحداهما : أن كل ما تصور فى الأفهام فالله تعالى بخلافه .

الثانية : اعتقاد أن ذاته ليست مشبهة بذات ولا معطلة عن الصفات ، وقد أكد ذلك بقوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ويرحم الله القائل :

كل ما ترتقى إليــه بوهم من جلال وقدرة وثناء

فالذى أبدع البرية أعــلى منه سبحان مبدع الأَشياء

سبحانه قد استوى كما ورد من غير كيف قد تعالى أن يحد

فلا يحيــط علمنـا بذاته كــذاك لا ينفك عن صفاته

قوله : سبحانه . أى تنزيها لجلال الله عما يقول المعطلة و يعتقده المشبهة . قد استوى على عرشه بعد خلق السموات والأرض ، كما ورد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ربكم

الله الّذى خَلَقَ السموات والأرْض فى ستّة أيَام ثُم استوى عَلَى العرش ﴾ وثم فى هذه الآية وغيرها للترتيب لا لمجرد العطف ، كما يقوله النفاة ، فهو تعالى مستو على العرش على الوجه الذى قاله ، وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المماسة والتمكن والحلول لايحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بقدرته ، ومقهورون فى قبضته ، ولو ذكر الناظم مايدل على الترتيب ، كان أحسن موافقة للقرآن العظيم ، وقد لاحظ الإمام الصرصرى ذلك حيث قال :

قضى خلقه ثم استوى فوق عرشه
ومن علمه لم يخل فى الأرض موضع

وليس يخاف عنه مثقال ذرّة تضمنها بحر وبيداء بلقع

ومن قال إن الله جل بذاته بكل مكان جاهل متسرع

إليه الكلام الطيب الصدق صاعد
وأعمال كل الخلق تحصى وترفع

ولما سأل ربيعة شيخ الإسلام مالك عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَى العرْشِ استوَى ﴾ . كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول – يعنى – معلوم لغة ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق .

وروى أيضاً نحو ذلك عن الإمام مالك . وسئل الإمام الشافعى عن الاستواء فقال : آمنت بلا تشبيه ،واتهمت نفسى فى الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك . ولما سئل الإمام أحمد عن الاستواء أجاب بقوله : استوى ، وكما ذكر لا كما يخطر للبشر .

وقال إمام الأئمة محمد بن خزيمة : من لم يقرّ بأن الله تعالى استوى على عرشه فوق سبع سماواته بائن من خلقه فهو كافر ينساب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه .

فمذهب السلف الصالح أن الله تعالى مستو على عرشه حقيقة من غير مماسة ، ولا حاجة إلى شيء من مخلوقاته ، ومذهب جهم بن صفوان وشيخه الجعد بن درهم ، وشيخه إبان بن سمعان اليهودى وأشياخهم وأتباعهم تحريف كلام الله ، وعدم الرضى ، والتسليم لما أخبر به عن نفسه ، أو أخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم فقالوا : استوى : استولى أو قهر أو ملك أو غلب. إلى غير ذلك من الظن والتخمين المنافى لما يطلب فى العقائد من الجزم واليقين . ويرحم الله القائل :

أمر اليهود بأن يقولوا حطة   فأبوا وقالوا حنطة لهوان
وكذلك الجهمى قيل له استوى   فأبى وزاد الحرف للنقصان
قال استوى استولى وذا من جهله   لغة وعقلا ماهما سيان

إلى أن قال :

نون اليهود ولام جهمى هما   فى وحى رب العرش زائدتان

فاستواء البارى تعالى على عرشه استواء حقيقى يليق بذاته تعالى من غير كيف ولا تشبيه لصفاته بصفات خلقه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وما أحسن ما قيل :

على عرشه الرحمن سبحانه استوى   كما أخبر القرآن والمصطفى روى
وذاك استواء لائق بجلاله   وابرأ من قولى له العرش قد حوى
فمن قال مثل الفلك كان استوائه   على جبل الجودى من شاهق هوى
ومن يتبع ما قد تشابه يبتغى   به فتنة أو يبغي تأويله غوى
فلم أقل استولى ولست مكلفا   بتأويله كلا ولم أقل احتوى
ومن قال لى كيف استوى لا أجيبه   بشيء سوى أنى أقول له استوى

ثم قال الناظم ملوحاً بالرد على الممثلة والمعطلة ـ تعالى الله ـ أن يحد وفيه الرد على

من زعم أنه يلزم من كونه مستوياً على عرشه أنه يحد ـ تعالى الله ـ عن ذلك إذ المحدود محدث ، والمحدث مفتقر للخالق ، والخالق سبحانه هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شيء عليم . الأول من غير بداية ، والآخر من غير نهاية ، والظاهر من غير تحديد ، والباطن من غير تخصيص ، موجود بالوجود القديم من غير تشبيه ولا تكييف ، فلا يحيط علمنا معشر الخلق بذاته تعالى ، فلا يعلم ماهو إلا هو . وقد نفى أئمة السلف علم العباد بكيفية صفات الله وحقيقة ذاته ، ولو اجتمع العقلاء بأجمعهم على أن يكيّفوا بصر المخلوق ، أو سمعه ، أو عقله ، لم يقدروا على ذلك مع أنه مخلوق، فإذا عجزوا عن تكيف ماهو مخلوق فعن تكييف من لا يجانسه مخلوق ، ولا يقاس على معقول أعجز ليس له مثل يقاس عليه هو ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ . لا يلحقه الوهم ، ولا يكيفه العقل ، ولذلك قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » تنبيهاً على نفي التشبيه والتكييف ، واعترافاً للغني الحميد بالجلال والعظمة ، فهذه غاية المعرفة صلى الله عليه وسلم . كذاك : أي كما أن علمنا لا يحيط بذاته المقدسة . لا ينفك : أي يخلص ويزول عن صفاته الذاتية ، وأفعاله الاختيارية ، فذاته ليست مثل ذوات المخلوقين ، وصفاته كذاته ليست كصفات المخلوقين .

فكل ما جاء في الدليل ... فثابت من غير ما تمثيل

من رحمة ونحوها كوجهه ... ويده وكل ما من نهجه

وعينه وصفة النزول ... وخلقه فاحذر من النزول

قوله : فكل ما : أي وصف . قد جاء فى الدليل الشرعى من الكتاب والسنة ، فإنه ثابت له تعالى وموصوف به من غير ما تمثيل ، بل نثبت له ما ورد ، ولا نتعرض له بتأويل ولا رد ، فمذهب السلف فى آيات الصفات الإثبات ، وأنها لا تؤوّل ولا تفسّر ، بل يجب الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى

من رحمة ، وهى صفة قائمة بذاته تعالى تقتضى التفضل والإنعام . ونحوها : أى نحو الرحمة من محبته تعالى ورضاه وغضبه . قال تعالى: ﴿يحبُّهم و يحبُّونه﴾ وقال تعالى: ﴿ إنّ الله يحبُّ المحسِنين ﴾ . كوجهه : أى من الصفات الثابتة له تعالى صفة الوجه إثبات وجود لا إثبات تكييف وتحديد . قال تعالى : ﴿ و يبقَى وجه ربك ﴾ وقال تعالى : ﴿ فأينما تولوا فَثَمَّ وجه الله ﴾ .

وقال أهل التأويل من المعتزلة وغيرهم : المراد بالوجه : الذات المقدسة . فأما كونه صفة الله فلا ، وهو خطأ . بل الصواب الأول . وكيده : أى من الصفات الثابتة له جلّ وعلا صفة اليد ، كما قال تعالى : ﴿ يَدُ الله فوقَ أَيْدِيهمْ ﴾ وكل ما : أى شىء وارد من صفات الله تعالى . من نهجه : أى نهج اليد والوجه ونحوهما . والنهج : الطريق الواضح . أى كل ما ورد من الأوصاف من الرِّجل والقدم والصورة ومن عينه . فنهجه الواضح الإقرار بما ورد والإيمان بما صح من غير تشبيه ، ولا تمثيل ، ولا إلحاد ، ولا تعطيل . ومن صفة النزول : أى مما يثبته السلف ولا يتأولونه صفة نزول البارى إلى سماء الدنيا . كما فى صحيح مسلم وغيره ، عن أبى سعيد وأبى هريرة مرفوعا: « أن الله يمهل حتى إذا كان ثلث الليل الأخير نزل إلى السماء الدنيا فنادى : هل من مستغفر ؟ هل من تائب ؟ هل من سائل ؟ هل من داع ؟ حتى ينفجر الفجر » ورواه البخارى ولفظه : « ينزل ربنا عز وجل إلى السماء الدنيا » ومن صفة خلقه التى أثبتها السلف والماتريدية دون المعتزلة ، والأشعرية والكلابية . فاحذر من النزول من ذروة الإيمان والاتباع ، إلى حضيض التأويل والابتداع .

فسائر الصفات والأفعال	قديمة لله ذى الجلال
لكن بلا كيف ولا تمثيل	رغما لأهل الزيغ والتعطيل
فمرها كما أتت فى الذكر	من غير تأويل وغير فكر

قوله : فسائر الصفات . أى الذاتية من الحياة ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والعلم ، والكلام ، وغيرها . وسائر الصفات الخبرية من الوجه ، واليدين ، والقدم ، والعين . وسائر الأفعال من الاستواء ، والنزول ، والإتيان ، والمجيء ، والتكوين ونحوها . قديمة عند سلف الأمة وأئمتها لله ذى الجلال والإكرام ليس منها شيء محدث ، وإلا لكان محلا للحوادث وما حلت به الحوادث فهو حادث ـ تعالى الله عن ذلك ـ لكن إثبات ذلك بلا كيف ، ولا تمثيل ، بل متابعة السلف الكرام . رغما لأهل الزيغ : أى الميل والانحراف عن منهج الحق ، ورغما لأهل التعطيل من الطوائف الضالة . فمرها : أى آيات الصفات كما أتت فى الذكر : أى القرآن ، والحديث الصحيح من غير تأويل لها ، وغير فكر فى معانيها .

قال سفيان بن عيينة : كل ما وصف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته ، والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وسمع الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ شخصا يروى حديث النزول ، ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ، ولا تغير حال ، فأنكر الإمام أحمد عليه ذلك ، وقال : قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو كان أغير على ربه منك ، ولما فرغ من ذكر ما يجب لله من الأسماء ، والصفات . شرع فى ذكر ما يستحيل فى حقه تعالى فقال :

ويستحيل الجهل والعجز كما قد استحال الموت حقا والعمى

فكل نقص قد تعالى الله عنه فيابشرى لمن والاه

قوله : ويستحيل ، أى فى حقه تعالى أضداد الصفات التى اتصف بها سبحانه ، فمن ذلك الجهل الذى هو ضد العلم ، والعجز الذى هو ضد القدرة ، كما أنه قد استحال فى حقه تعالى الموت الذى هو ضد الحياة . حقا : مصدر منصوب بفعل محذوف تقديره أحق ذلك حقا ، ويستحيل العمى الذى هو ضد البصر ،

وكذا الصمم الذى هو ضد السمع ، والبكم الذى هو ضد الكلام ، والفناء الذى هو ضد البقاء ، والعدم الذى هو ضد الوجود ، والفقر الذى هو ضد الغنى ، والمماثلة للحوادث المنفية فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ فكل نقص من هذه الأوصاف قد تعالى وتنزه الله عنه ؛ لأن له الكمال المطلق . فيابشرى احضرى لكل من : أى شخص من أهل السنة والجماعة قد والاه الله أو قد والى هو الله أى : اتخذه وليا معتمداً عليه ومفوضا أمره إليه .

فصل

فى ذكر الخلاف فى صحة إيمان المقلد فى العقائد ، وفى جوازه وعدمه

وكل ما يطلب فيه الجزم . فمنع تقليد بذاك حتم
لأنه لا يكتفى بالظن لذى الحجى فى قول أهل الفن

قوله : وكل ما . أى اعتقاد يطلب فيه أو فى ذلك الاعتقاد من معرفة الله تعالى ، وما يجب له ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز الجزم : أى بأن يجزم به جزما لا يحتمل متعلقه النقيض عنده لو قدره فى نفسه ، فإن طابق الواقع فهو اعتقاد صحيح وإلا فاسد ، وما كان من هذا الباب فمنع تقليد . وهو لغة : وضع الشىء فى العنق حال كونه محيطا به ، وذلك الشىء يسمى قلادة ، وعرفا أخذ مذهب الغير . يعنى : اعتقاد صحته واتباعه عليه بلا دليل . فإن أخذه بالدليل فليس بمقلد له ولو وافقه ، فالرجوع إلى قوله صلى الله عليه وسلم ليس بتقليد ، كما سيأتى بيانه آخر الكتاب . بذاك : أى بما يطلب فيه الجزم . حتم : أى لازم .

قال علماؤنا وغيرهم : يحرم التقليد فى معرفة الله تعالى ، وفى التوحيد والرسالة ، وكذا فى أركان الإسلام الخمسة مما تواتر واشتهر . لأنه : أى الأمر والشأن لا يكتفى فى الأصول الدينية ومعرفة الله تعالى بالظن الذى يفيده التقليد . والظن : هو ترجيح

أحد الطرفين على الآخر ، فالراجح : هو الظن ، والمرجوع : هو الوهم ، فلا يكتفى به فى أصول الدين . لذى الحجى : أى صاحب العقل والفطنة من قول أهل الفن من الأئمة .

قال ابن أحمد : إن كل ما يطلب فيه الجزم يمتنع التقليد فيه ، و إلا أخذ فيه بالظن ، لأنه لايفيده و إنما يفيده دليل قطعى . وقال فى شرح مختصر التحرير : وأجازه ــ يعنى التقليد فى أصول الدين جمع .

وقال ابن مفلح : وأجازه بعض الشافعية لإجماع السلف على قبول الشهادتين من غير أن يقال لقائلها نظرت . و إلى هذا أشار بقوله .

وقيل يكفى الجزم إجماعا بما　　　يطلب فيه عند بعض العلماء

فالجازمون من عوام البشر　　　فمسلمون عند أهل الأثر

قوله : وقيل يكفى . أى فى أصول الدين الجزم ولو تقليدا إجماعا بكل ما : أى حكيم . يطلب فيه : أى فى ذلك المطلوب من أصول الدين عند بعض العلماء من الحنابلة ، والشافعية وغيرهم . فالجازمون حينئذ بعقدهم ولو تقليداً من عوام البشر الذين ليسوا بأهل للنظر والاستدلال . فعلى الصواب هم مسلمون عند أهل الأثر وأكثر النظار ، و إن عجزوا عن بيان مالا يتم الإسلام إلا به .

قال ابن حامد : لايشترط أن يجزم عن دليل ــ يعنى : بل يكفى الجزم ولو عن تقليد .

وقال النووى : الآتى بالشهادتين مؤمن حقا ، و إن كان مقلدا على مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم اكتفى بالتصديق بما جاء به ، ولم يشترط المعرفة بالدليل . قلت : وهو القدوة ، و به صلى الله عليه وسلم الأسوة .

الباب الثانى

فى الأفعال المخلوقة

وسائر الأشياء غير الذات ... وغير ما الأسماء والصفات

مخلوقة لربنا من العـدم ... وضل من أثنى عليها بالقدم

قوله : وسائر : أى بقية . الأشياء : جمع شىء غير الذات المقدسة ، وغيرما الأسماء : أى أسمائه تعالى وغير الصفات الذاتية ، والخبرية ، والفعلية ، مخلوقة لربنا تبارك وتعالى من العدم مسبوقة به ، وضل عن الصراط المستقيم . من أثنى عليها : أى على سائر الأشياء بأن وصفها بالقدم . فقد أخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » وكان عرشه على الماء : أى قدر مقادير الخلائق التى خلقها فى ستة أيام إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . كما فى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « أول ماخلق الله القلم. فقال: اكتب . قال: وما أكتب ؟ قال : ماهو كائن إلى يوم القيامة » وهذا هو التقدير المذكور فى قوله مقادير الخلائق .

وربنـا يخلق باختيـار ... من غير حاجة ولا اضطرار

لـكنه لايخلق الخلق سدى ... كما أتى فى النص فاتبع الهدى

قوله : وربنا تبارك وتعالى يخلق : أى ماشاء من المخلوقات باختيار منه تعالى ، كما هو مذهب السلف الأمة وأئمتها ، فهو تعالى لم يزل فاعلا لما يشاء ، وأنه تقوم بذاته الأمور الاختيارية ، وأنه تعالى لم يزل متصفا بصفاته الذاتية والفعلية ، فلم يحدث لهم اسم من أسمائه ،ولا صفة من صفاته ، فيخلق سبحانه المخلوقات، و يحدث الحوادث ، بعد إن لم تكن من غير حاجة منه تعالى ولا اضطرار عليه ، فلا حاجة

باعثة له سبحانه على خلقه للمخلوقات ولا مكره له عليها ، بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لمحض المشيئة وصرف الإرادة ، لكنه تعالى لا يخلق الخلق سدى أى : هملا بلا أمر ، ولا نهى ، ولا حكمة ، بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة ، وإن تقاصرت عنها عقول البشر ، كما أتى فى النص القرآنى ، والسنة النبوية : أن الله تعالى لا يفعل إلا لحكمة وعلم وهو العليم الحكيم . قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أنْ يُتركَ سُدًى ؟ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ أفحسِبْتُم أَنّمَا خلقنَاكم عَبَثاً وأنكمْ إلينَا لا تُرجَعُون ؟ ﴾ . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، فنزه سبحانه نفسه وباعدها عن هذا الحسبان ، وأنه تعالى متعال عنه ، فلا يليق به لقبحه ومناماته الحكمة ، فإثبات العلة والحكمة لأفعاله هو الحق الحقيق بالاتباع . وقد حكاه ابن قاضى الجبل عن إجماع السلف ، فاتبع الهدى بالتمسك بالكتاب والسنة ، واقتفاء السلف الصالح ولا تجحد لحكمة الله ، فهو الحكيم القدير .

أفعالنا مخلوقة لله لكنها كسب لنا يالاهي
وكل ما يفعله العباد من طاعة أو ضدها مراد
لربنا من غير ما اضطرار منه لنا فافهم ولا تماد

قوله : أفعالنا . أى معشر العباد جميعها مخلوقة لله ، كما قال تعالى : ﴿ ذلكُمُ اللهُ رَبكم خَالقُ كُل شَيء ﴾ .

قال العلماء : اتفق السلف قبل ظهور البدع والأهواء ، على أن الخالق هو الله لا سواه ، وأن الحوادث كلها حادثة بقدرة الله تعالى من غير فرق بين ما يتعلق بقدرة العبد وبين ما لا يتعلق بها ، فهى مقدرة بقدرة الله تعالى اختراعا ، وبقدرة العبد على وجه آخر أشار إليه بقوله : لكنها : أى أفعالنا كسب لنا معشر الخلق .

قال العلامة ابن حمد : إن الـكسب هو ما خلقه الله فى محل قدرة المـكتسب على وفق إرادته فى كسبه .

وقال شيخ الإسلام : الـكسب عند القائل به عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة ، ومن جملة ما فرق به بين الـكسب والخلق أن الـكسب وقع بآلة ، والخلق لا بآلة ، والـكسب يصح انفراد القادر به والخلق يصح .

قال علماء السنّة : وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها إن كانت طاعة ، ويعاقبون عليها إن كانت معصية ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ رسالة مفردة فى الـكلام على الإرادة والأمر وغير ذلك . قال فيها : ومما ينبغى أن يعلم أن مذاهب سلف الأمة مع أن قولهم الله خالق كل شىء وربه ومليكه ، وأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شىء قدير ، وأنه هو الذى خلق العبد هلوعاً ، إذا مسّه الشر جزوعاً ، وإذا مسّه الخير منوعاً ، ونحو ذلك . إن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة .

قال تعالى : ﴿ لمنْ شاءَ منـكُم أن يَستقيم * وما تشاءون إلاَّ أَنْ يشاءَ الله رَبُّ العالمِين ﴾ .

وقوله : يا لاهى . تـكملة للبيت ، وفيه إشارة إلى الحث على المبادرة فى الطاعات . وكل ما : أى فعل يفعله العباد من طاعة ، وهى متعلق المدح فى العاجل ، والثواب فى الآجل . أو ضدها : أى وكل ما يفعلونه من ضد الطاعة وهى المعصية ـ يعنى : مافيه ذم فى العاجل، وعقاب أو لوم فى الآجل . مراد لربنا تعالى : أى داخل تحت إرادته ومشيئته، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شىء قدير . من غير ما اضطرار: من باب الافتعال أبدلت التاء طاء كما تقرر فى محله ، وما : زائدة لتأكيد النفى منه تعالى لنا معشر العباد ، بل خلق فينا قدرة وأقدرنا على إيقاع

أفعالنا بالإذن منه ، فلقدرة العبد تأثير فى إيجاد فعله لا بالاستقلال ، بل بالإعانة والتمكين ، ولله در الإمام أبى الخطاب فما أحسن قوله :

قالوا ما فعل العباد فقلت ما   من خالق غير الإله الأمجد
قالوا فهل فعل القبيح مراده   قلت الإرادة كلها للسيد
لو لم يرده وكان نقيصة   سبحانه عن أن يعجزه الردى

فافهم فهم إذعان وتحقيق ، ولا تمار فى علمك ، بل كن مع الحق حيث كان . والمماراة: المجادلة على مذهب الشك والريبة ، ويقال للمناظرة : مماراة؛ لأن كل واحد من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه ، كما يمترى الحالب اللبن من الضرع

وجاز للمولى يعذب الورى   من غير ماذنب ولا جرم جرى
فكل ما منه تعالى يجمل   لأنه عن فعله لا يُسأل
فإن يثب فإنه من فضله   وإن يعذب فبمحض عدله

قوله : وجاز للمولى جل جلاله وهو رب العالمين . يعذب الورى : أى الخلق . من غير ما ذنب : أى إثم . ولا جرم : هو بمعنى ما قبله وعطفه عليه لزيادة البيان . جرى: من العبد. فكل ما : أى شىء منه تعالى من إثابة وعقوبة وخلق خير وشر . يجمل : أى يحسن ، فكل ما يصدر عنه تعالى من الأمر والخلق بالنسبة إليه حسن جميل حتى إثابة العاصى وعقوبة المطيع ؛ لأنه تعالى عن فعله لا يسأل . كما قال تعالى : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يفعل وهم يُسأَلون ﴾ . فإن يثب المطيعين فإنه : أى الثواب بالخير من فضله تعالى ، وإن يعذب عباده فمحض عدله تعالى ـ يعنى : أنه تعالى لو عذبهم لعذبهم بعدله الخالص من شائبة الظلم ؛لأنه تعالى تصرف فى ملكه. والعدل : وضع الشىء فى محله من غير اعتراض على الفاعل عكس الظلم . واستدل لهذا بقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تُعَذِّبهمْ فإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ . يعنى لم تتصرف فى غير ملك . وبقوله تعالى : ﴿ لا يُسأل عما يفعَل وهم يُسْأَلون ﴾

وبقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لـكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم » و بقوله صلى الله عليه وسلم فى دعاء الحزن : « اللهم إن عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضائك » الحديث ـ فبين أن كل قضائه فى عبده عدل .ولهذا يقال: أطعتك بفضلك والمنّة لك ، وعصيتك بعلمك أو بعدلك والحجة لك ، فاسألك بوجوب حجتك علىّ ، وانقطاع حجّتى إلا ماغفرت لى .

فلم يجب عليه فعل الأصلح   ولا الصلاح ويح من لم يفلح
فـكل من شاء هداه يهتدى   وإن يرد إضلال عبد يعتدى

قوله : فلم يجب عليه تعالى فعل الأصلح : أى الأنفع . ولا يجب عليه جل جلاله فعل الصّلاح لعباده خلافاً للمعتزلة . ويح : كلمة ترحم تقال لمن وقع فى هلـكة لا يستحقها .وهى منصوبة على المصدر ، وقد ترفع وتضاف كما هنا . وضدها : ويل . وأتى بها دون كلمة تأويل ترحماً لمن استزله الشيطان من المسلمين مع ظهور الأدلة من أى شخص بالغ عاقل . لم يفلح : أى يفز باتباع الحق،والفلاح من الـكلمات الجوامع، وهو عبارة عن أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعزّ بلا ذل ، وعلم بلا جهل . قالوا : فلاح ، كلمة أجمع للخير منها . فـكل من : أى شخص . شاء الله تعالى هداه : أى توفيقه يهتدى الهداية المطلوبة فى قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صِراط الذينَ أَنعمتَ عليْهم ﴾ و إن يرد سبحانه إضلال عبد بترك المأمور وارتـكاب المحضور يعتدى بفعل ذلك . قال تعالى : ﴿ كذلكَ يضلُّ اللهُ مَنْ يشاء ويهدِى مَنْ يَشاء ﴾ .

والرزق ما ينفع من حلال   أو ضـــده فخل عن المحال
لأنه رازق كل الخلق   وليس مخلوق بغير رزق

قوله : والرّزق ما ينفع : أى المرتزق ينتفع بحصوله سواء كان ذلك المنتفع به

من حلال ، وهو ما انحلت عنه التبعات ضد الحرام . أو ضده : أى ضد الحلال ، وهو الحرام . أى : ما منع منه شرعاً . أما الصفة فى ذاته ظاهرة كالسم والخمر ، أوخفية كالربا ، ومذكى المجوسى ونحوه ، لأنه فى حكم الميتة ، وأما الخلل فى تحصيله كالربو أو الغصب ونحو ذلك . فكل ذلك رزق ؛ لأن الله يسوقه للحيوان فيتغذى به . فحل : أى زل . عن المحال : أى الخطأ .

قال فى القاموس : والمحال من الكلام ـ بالضم ـ ماعدل عن وجهه كالمستحيل ، ومراده بذلك مذهب المعتزلة القائلين : إن الإنسان إذا تغذى طول عمره بالحرام لم يرزقه الله ، وما ذهبوا إليه محال ؛ لأنه تعالى رازق كل الخلق ، كما دلت على ذلك الأدلة من الكتب والسنة . قال تعالى : ﴿ وما مِنْ دابةٍ فى الأرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُها ﴾ . وليس يوجد مخلوق من سائر الحيوانات و يبقى بغير رزق ،فظهر فساد مذهب المعتزلة ، وصحة مذهب أهل السنة ، فإن الله تعالى قسم بين الخلق معائشهم فى الحياة الدنيا ، ومعلوم أن الحرام معيشة لبعض الأنام . والله الفعال لما يريد .

ومن يمت بقتله من البشر   أو غيره فبالقضاء والقدر

ولم يفت من رزقه ولا الأجل   شيء فدع أهل الضلال والخطل

قوله : ومن يمت . أى من سائر الحيوانات. بقتله : من سائر أنواع القتل من البشر . الإنسان ذكراً كان أو أنثى ، واحداً أو جمعا ، أو غيره : أى غير البشر من سائر الحيوانات . فموته بالقضاء : أى بقضاء الله تعالى .وهو لغة : الحكم .وعرفا : إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هى عليه فيما لا يزال . والقدر : أى بتقدير الله تعالى .

قال الخطابى : قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله تعالى ، والقضاء معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ، و يتوهم أن قوله صلى الله عليه وسلم : « فحج آدم موسى » من هذا الوجه ، وليس كذلك .و إنما معناه الإخبار

عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم ، وصدورها عن تقديرمنه ، وخلق لها خيرها وشرها ، ولم يفت على المقتول ولا غيره من رزقه المقسوم له فى علم الله تعالى ، ولا فاته أيضاً من الأجل المحتوم شىء ، ولا لحظة واحدة . فدع : أى اترك أهل الضلال من طوائف الاعتزال ودع أهل الخطل : أى الكلام الفاسد وأهل الضلال هم القائلون : إن للمقتول أجلين : القتل والموت . وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذى هو الموت ، وهذا قول باطل .

ففى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقة ، وأجله ، وعمله ، وشقى أوسعيد » . وقد ورد أن هذه الكتابة تكتب بين عينى الجنين .

قال الحافظ بن رجب : وبكل حال فهذه الكتابة التى تكتب للجنين فى بطن أمه غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ ما أَصَابَ مِن مُّصِيبة فى الأَرْضِ ولا فِى أَنْفُسِكم إلاَّ فِى كتابٍ مِّنْ قَبْلِ أن نَّبرأَهَا ﴾ .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعا « أن الله تعالى قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

قال علماء الحديث : فيكتب رزقه قليلا كان أو كثيراً ، وصفته حلالا كان أو حراما أو مكروها ، ويكتب أجله طويلا كان أو قصيراً . والله أعلم .

الباب الثالث

فى الأحكام والكلام على الإيمان ومتعلقات ذلك

اعلم أن الأحكام : جمع حكم . وهو عند الأصوليين خطاب الله المتعلق بأفعال المكلف من حيث أنه مكلف وهى خمسة ، لأن الحكم إن عوقب تاركه فهو واجب ، أو فاعله فهو حرام أو أثيب فاعله فهو ندب ، أو تاركه فهو مكروه . أو لم يثب ولم يعاقب فهو مباح ، وقد اختلف الناس فى علة التكليف ، فذهبت الجبرية : إلى أن ذلك صادر عن محض الإرادة ، وصرف المشيئة ، وأنه لا علة ولا حكمة . وذهب القدرية : إلى أن ذلك استئجار منه لعباده لينالوا أجرهم بالعمل . و بطلان هذين المذهبين أوضح من أن يقام عليه دليل . وأما مذهب أهل الحق ، أهل البصائر أتباع الرسل ، فحكمة الله تعالى فى تكليفهم ما كلفهم به أعظم عندهم وأجل مما يخطر بالبال ، أو يعبر عنه بالمقال ، و يعلمون أن من حكمته تعالى فى أمره ونهيه ، كونه أهلاً أن يعبد وحده لاشريك له ، وأن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، و يشكر فلا يكفر . و إلى هذا المقام أشار بقوله :

وواجب على العباد طرا   أن يعبدوه طاعة وبرا

ويفعلوا الفعل الذى به أمر   حتما ويتركوا الذى عنه زجر

قوله : وواجب على العباد طرا . أى جميعا ــ وهو منصوب على الحال ــ أن يعبدوه سبحانه وتعالى ، والعبادة : ما أمر به شرعا من غير إطراد عرفى ولا اقتضاء عقلى . طاعة : أى لأجل الطاعة وامتثال الأمر . و برا : أى لأجل البر والإحسان الناشىء عنهما المحبة ، فهو سبحانه أهل أن يعبد ، وأهل أن يكون الحب كله له والعبادة له ، حتى لو لم يخلق جنة ، ولا ناراً ، ولا وضع ثوابا ، ولا عقابا . و يفعلوا :

يعنى : العباد ، الفعل الذى به أمر . فإن كان على سبيل الحتم والوجوب فعلوه حتما . أى لزوما .

قال فى النهاية : الحتم اللازم الواجب الذى لابد من فعله ، وإن كان على سبيل الندب والإرشاد فعلوه ندبا ، وأن يتركوا الشىء الذى عنه زجر : أى منع والزجر يفيد التحريم ، وإن لم يكن على سبيل الزجر فالمكروه وخلاف الأولى .

فصل

فى الكلام على القضاء والقدر

وكل ما قدر أو قضاه فواقع حتما كما قضاه

وليس واجب على العبد الرضى بكل مقضى ولكن بالقضاء

لأنه من فعله تعالى وذاك من فعل الذى تقالى

قوله : وكل ما : أى شىء قدره سبحانه وتعالى أو قضاه من سائر الأشياء فهو واقع حتما لازما . كما قضاه : أى حكم به وقدره حسبما سبق فى علمه وجرى به القلم فى الكتاب الذى كتبه قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام المذكور فى قوله تعالى : ﴿ ما أَصَابَ من مُّصِيبة فِى الأَرض وَلا فى أنفسكم إلا فِى كتَابٍ مِّنْ قَبل أَن نَّبرأها ﴾ .

قال العلامة الحافظ بن رجب : والإيمان بالقدر على درجتين :

أحدها : الإيمان بأن الله تعالى سبق فى علمه ما يعمله العباد من خير وشر ، وطاعة ، ومعصية قبل خلقهم ، ومن هو منهم من أهل الجنة ، ومن هو منهم من أهل النار ، وأعدلهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم ، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه ، وأن أعمال العباد تجرى على ما سبق فى علمه وكتابه .

والدرجة الثانية : أن الله خلق أفعال العباد كلها من الـكفر ، والإيمان ، والطاعة ، والعصيان وشاءها منهم ،فهذه الدرجة يثبتها أهل السنةوالجماعة .وتنكرها القدرية ، والدرجة الأولى أثبتها كثير من القدرية ونفاها غلاتهم ، كمعبد الجهنى الذى سأل ابن عمر عن مقالة ، وكعمرو بن عبيد وغيره .

قال العلماء : والمنـكرون لهذا ــ أى العلم القديم ــ القائلون الأمر أُنف قد انقرضوا ، وهم الذين كفرهم الإمام مالك ،والإمام الشافعى ، والإمام أحمد ، وغيرهم من الأئمة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله سره ــ وأما هؤلاء : يعنى الفرقة الثانية ، فإنهم مبتدعون ضالون ، لـكنهم ليسوا بمنزلة أولئك قال : وفى هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم ، وأخرج البخارى ومسلم لجماعة منهم ، لـكن من كان داعية لم يخرجوا له . وهذا مذهب فقهاء الحديث ، كالإمام أحمد وغيره .

قال الإمام أحمد : لو تركنا الرواية عن القدرية ، لتركنا أكثر أهل البصرة .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رضى الله عنه ــ هذا لأن مسألة خلق أفعال العباد وإرادة الـكائنات مسألة مشـكلة ، وروى عن الإمام الشافعى ــ رضى الله عنه ــ أنه قال لما سئل عن القدر :

ما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئت إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ... ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسن

هذا ، والبحث طويل عريض ، وإن أحببت زيادة الاطلاع ، وتحقيق البحث فعليك بمؤلفات الإمام شيخُ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه الإمام ابن القيم ، فقد ألف هذا الإمام كتاباً سمّاه [شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر ، والحكمة والتعليل]

لم يؤلف مثله لاقبله ولا بعده فيما علمت ،وليس واجب على العبد المكلف الرضى ، وهو سكون القلب وطمأنينته بكل مقضى ، بل فيه تفصيل ؛ لأنه إما أن يكون مقضياً دينياً شرعياً ، فالواجب على العبد أن لايختار فى هذا النوع غير مااختاره الله له ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُه أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهم الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم ﴾ فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه تسليما ، ورضاه بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، وإما أن يكون كونياً قدرياً كالمصائب التى يبتلى بها العبد ،فهذا لايضره فراره منها إلى القدر الذى يرفعها عنه ويكشفها ، وليس فى ذلك منازعة للربوبية ، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر ، ولكن يجب الرضى بالقضاء ، فإن لفظ الرضى بالقضاء لفظ محمود مأمور به . لأنه : أى القضاء . من فعله : أى من فعل الله تعالى . فنرضى بفعله تعالى دون المعصية الصادرة من العبد . وذاك : أى المقتضى المبغوض لله ولرسوله من المعاصى والظلم لا يرضى به العبد ؛ لأنه من فعل الشخص الذى تقالى : تفاعل من قلاه كرماه رفضه وأبغضه : أى من فعل الذى أتى بما يبغضه الله بإتيانه به من المعاصى والظلم ، فهذا لا يسوغ الرضى به .

فصـــل

فى الكلام على الذنوب ومتعلقاتها للصحابة

اعلم وفقنا الله وإياك أن أول اختلاف وقع فى هذه الأمة :هو خلاف الخوارج حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية ، وأدخلوهم فى دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار ، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم ثم حدث بعضهم خلاف المعتزلة . وقولهم : إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ويثبتون المنزلة بين المنزلتين ، ثم حدث خلاف المرجئة . وقولهم : إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان ، وقد صنف العلماء قديماً وحديثاً فى هذه المسائل تصانيف متعددة ، و بينوا

ما هو الحق فيها ، وصرحوا أن الفاسق الملى مرتكب الكبيرة ، فاسق بكبيرته ، مؤمن بإيمانه وهو تحت مشيئة الله تعالى . ولهذا قال :

ويفسق المذنب بالكبيرة   كذا إذا أصرّ بالصغيرة
لا يخرج المرء من الإيمان   بموبقات الذنب والعصيان

قوله : ويفسق . أى المسلم المكلف. المذنب بإتيان المعصية الكبيرة ، وأصل الفسوق الخروج عن الاستقامة والجور ، وبه سمى العاصى فاسقاً والكبيرة كل معصية فيها حد فى الدنيا أو وعيد فى الآخرة ، وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أو ورد فيها وعيد بنفى إيمان أو لعن ونحوهما ، وإلى ذلك أشار العلامة موسى الحجاوى بقوله :

فما فيه حد فى الدنيا أو توعد   بأخرى فَسِمْ كبرى على نص أحمد
وزاد حفيد المجد أوجا وعيده   بنفى لإيمان ولعن لمبعد

كذا : أى مثل إتيان الكبيرة إذا أصر بالصغيرة ـ الباء بمعنى على ـ أى : على الجريمة الصغيرة ، والإصرار لزومها ودوامه عليها ، وأما من أتبعها بالتوبة والاستغفار ، فليس بمصر عليها ، وفى الحديث « ما أصر من استغفر » لا يخرج المرء من الإيمان الآتى تعريفه بموبقات الذنب . أى : المهلكات جمع موبقة . سميت الجريمة الكبيرة ؛ لأنها سبب لإهلاك مرتكبها فى الدنيا بما يترتب عليها من العقاب وفى الآخرة من العذاب وال فى الذنب للجنس أو الاستغراق ، فيشمل كل الذنوب والعصيان دون الشرك بالله تعالى ، والعصيان : ضد الطاعة ، وهو يرادف الذنب ، فالمؤمن لا يخرج من الإيمان بملابسة كبائر الذنوب والعصيان ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الله لا يغفرُ أن يُشركَ بهِ ويغفرُ ما دون ذلكَ لمن يشاء ﴾ .

وفى الحديث القدسى الذى رواه الترمذى عن أنس مرفوعاً : « يا ابن آدم ،

إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » فدلت الآية وحديث أنس أن من جاء مع التوحيد بملء الأرض خطايا ، لقيه الله بملئها مغفرة مع مشيئة الله تعالى ، فإنْ شَاءَ غفر لهُ ،و إن شاء عذّبه وأخذه بذنبه ، ثم كان عاقبته أن لايخلد فى النار ، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة .

وواجب عليه أن يتوبا ⁂ من كل ما جر عليه حوبا

ويقبل المولى بمحض الفضل ⁂ من غير عبد كافر منفصل

ما لم يتب من كفره بضده ⁂ فيرتجع عن شركه وصده

قوله : وواجب عليه : أى على المذهب . أن يتوبا ــ بألف الإطلاق للوزن ــ أى يرجع عن الذنب بأن يقلع عنه ، و يندم عليه ، و يعزم على أن لا يعود إليه ، و يرضى الآدمى عن ظلامة إن تعلقت به من كل ما : أى شىء . جر : أى قاد . عليه : أى على المذنب . حوبا : أى إثماً . و يقبل المولى الذى هو رب العالمين بمحض الفضل : أى خالص الكرم من كل عبد مذنب تاب إلى الله تعالى توبة نصوحا بشروطها المذكورة قريباً ، ولا بد أن تكون من شخص مسلم غير عبد كافر بالله ورسوله ، منفصل عن الدين سواء كان مرتداً ، أم كافراً أصلياً ، فلا تقبل توبته من الذنوب ، ما لم يتب : أى يرجع من كفره فيسلم و يقر لله بالوحدانية ، ولنبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، و يؤمن بجميع ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، و يتصف من بعد رجوعه عن الكفر بضده من الإسلام ، فلا يقبل منه مالم يرجع عن شركه الذى كان متصفاً به . وصده : أى إعراضه عن الدين ، فإن كان مرتداً بإنكار ما علم من الدين بالضرورة إيجاباً وتحريماً ، فيرجع عن إنكاره ذلك ، و إن كان مشركاً معتقداً أن لله شريكاً يستقل بالنفع والضر وعلم الغيب ، فلا بد من رجوعه عما كفر به حتى تقبل توبته .

ومن يمت ولم يتب من الخطا ⁂ فأمره مفوض لذى العطا

فإن يشأ يعفو و إن شاء انتقم و إن يشاء أعطي وأجزل النعم

قوله : ومن يمت أى : أىّ أمر مذنب أدركه الموت وهو مصر على ذنوبه ، ولم يتب من الخطأ الذى ارتكبه ، فأمره الذى يؤول إليه مفوض : أى موكول ومردود لذى : أى صاحب العطا الواسع و يمد وفى الأسماء الحسنى: المعطى أن يعطى من يريد مايريد ، ومن ثم قال : فإن يشأ سبحانه وتعالى .يعنى : أى يتجاوز عن من مات مرتكبا لذنوبه ، ولم يتب منها ، والعفو : التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه ، و إن شاء انتقم منه ، فإن عامله بالفضل عفا وأنعم ، و إن عامله بالعدل انتقم وآلم ، والانتقام : أن يبلغ فى العقوبة حدها ، وفى الأسماء الحسنى : المنتقم وهو البالغ فى العقوبة لمن يشاء . و إن يشأ أعطى النوال . وأجزل : أى أكثر . النعم : جمع نعمة ، وهى المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير .

فصل

فى ذكر من قيل بعدم إسلامه من طوائف الملحدين

وقيل فى الدروز والزنادقة وسائر الطوائف المنافقة

وكل داع لابتداع يقتل كمن تكرر نكثه لا يقبل.

لأنه لم يبد من إيمانه إلا الذى أذاع من لسانه

كملحد وساحر وساحره وهم على نياتهم فى الآخره

قلت و إن دلت دلائل الهدى كما جرى للعيلبونى اهتدى

فإنه أذاع من أسرارهم ما كان فيه الهتك عن أستارهم

وكان للدين القويم ناصراً فصار منا باطنا وظاهراً

فكل زنديق وكل مارق وجاحد وملحد منافق

إذا استبان نصحه للدين فإنه يتقبل عن يقين

قوله : وقيل وهو المذهب فقهاً فى طوائف الدّروز من الحمزاوية أتباع حمزة اللباد المدعو عندهم بهادى المستبحيبيين ، وهم القائلون : بإلهية الحاكم العبيدى ، ومثلهم البابية القائلون : بإلهية الباب ، وغيره من طواغيتهم ، وهم أربع فرق :

الأولى : البابية الخُلّص : أى الذين اتبعوا الباب فقط ، وهو محمد بن على الشيرازى . ولد سنة ألف ومائتين وخمس وثلاثين ، وكان تلميذا لأحد تلامذة أحمد الاحسائى ، وهو كاظم الرشتى الذى مزج التصوف والفاسفة بالشريعة ، وجمع بين الاعتقادات الإمامية ، والأصول الفلسفية على نمط جديد ، ثم إن الميرزا محمد على سمى نفسه بالباب أخذ من الحديث المشهور : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » وأظهر التقشف فاغتر به الإغرار ، فما زال أمره يظهر حتى ادعى النبوة ، ثم الألوهية ، فقُتل كفراً بإفتاء علماء الفرس بتبريز سنة ألف ومائتين وخمس وستين .

الثانية : البابية الأزليه القائلون : بخلافة تلميذ الباب يحيى الملقب : بصبح أزل لقبه به الباب .

الثالثة : البابية البهائية القائلون : بإلهية البها الميرزا حسين المازندرانى ، وهو أخو يحى المتقدم ، وقد نفى إلى عكا ، كما نفى أخوه إلى قبرص . مات سنة ألف وثلاثمائة وتسع سنين .

الرابعة : البابية العباسية القائلون : بإلهية عباس بن البهاء الذى قبله ، وقد ولد هذا بطهران سنة ألف ومائتين وخمس وستين . ورافق أباه بالنفى إلى بغداد وأدرنة وعكا ، وهو الآن ـ أى سنة ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين حى ، وسيقدم على مالك إن شاء الله ، ومسكنه فى عكا من بلاد الشام ، وقد استوفى الكلام على هذه الطوائف أحد علماء الفرس فى كتابه [بابه الأبواب] وكذا فى [مفتاح باب الأبواب] و إنما ألحقت البابية بالدروز ؛ لأن الحكم يدور مع علته وكلامها قد

ارتد عن الإسلام ، وتأله المخلوق المربوب دون الخالق رب العباد ، فحكمهم حكم الدروز . والزنادقة : جمع زنديق ، وهو الذى يظهر الإسلام ويخفى الكفر. وسائر : أى بقية . الطوائف : جمع طائفة وهى القطعة أو الواحد فصاعداً . المنافقة : من النفاق وهو اختلاف السر والعلانية ، وكان من أظهر الإسلام وأبطن خلافه يسمى منافقا ، وأما اليوم فيسمى زنديقا ، وكل داع لانتحال ابتداع مكفر ، يقتل لعدم قبول توبته ظاهراً . ذكر القاضى وأصحابه من علماء المذهب رواية عن الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ لا تقبل توبة داعية إلى بدعةٍ مضلة ، والصحيح أنها تقبل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قد بين الله تعالى أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع ، وأما من قلد الداعية إلى البدعة ، فإنه يفسق . نص على ذلك غير واحد .

قال العلامة الشيخ منصور فى حاشية المنتهى : قال المجد الصحيح إن كل بدعة كفرنا فيها الداعية ، فإنا نفسق المقلد فيها ، كمن يقول: بخلق القرآن ، أو بأن ألفاظنا به مخلوقة ، أو أن علم الله به مخلوق ، أو أن أسماء الله مخلوقة ، أوأنه لا يرى فى الآخرة ، أو يسب الصاحبة تدينا ، أوأن الإيمان مجرد الاعتقاد ، وماأشبه ذلك. فمن كان عالما بشىء من هذه البدع يدعو إليه ، و يناظر عليه ، فهو محكوم بكفره . نص أحمد على ذلك صريحا فى مواضع ، واختلف عنه فى تكفير القدرية بنفى خلق المعاصى على روايتين ، وله فى الخوارج كلام يقتضى فى تكفيرهم روايتين ، نقل حرب لاتجوز شهادة صاحب بدعة . انتهى .

قلت: وإنما قيد نفى القدرية بالمعاصى جريا على المشهور لدى الجمهور . والصحيح: أن القدرية ينفون خلق أفعال العباد مطلقا ، بل غلّط شيخ الإسلام ابن تيمية حفيد المجد من خص النفى بالمعاصى فقط ، كمن : أى كمكلف تكرر نكثه أى : نقضه للإسلام بأن تكررت ردته لا يقبل منه الإسلام على ظاهر المذهب لظاهر

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذينَ آمنوا ، ثم كفروا ، ثم آمنوا ، ثم كفروا ، ثم ازدادُوا كُفراً ، لم يكنِ اللهُ ليغْفِرَ لهم ولا لِيَهْدِيَهُمْ سَبيلا ﴾ والسبب فى عدم قبول توبة نحو المنافق ذكره بقوله : لأنه لم يبد للعيان ظاهراً من إيمانه الذى زعم أنه أتى به ودخل به إلى الإسلام . إلا الذى أذاع : أى أظهر من لسانه مع عدم اعتقاده للإسلام ، كما لا يقبل إيمان ملحد مأخوذ من الإلحاد ، وهو الميل والعدول عن الشيء . والجمع : ملاحدة ، وهم الذين يسبون الله تعالى أو نبيا من أنبيائه ، وكساحر وساحرة ممن يكفر بسحره من ذكر أو أنثى .

قال فى فتح المجيد : قال أبو محمد المقدسى - يعنى موفق الدين بن قدامة - فى الكافى السحر عزائم ورقى وعقد تؤثر فى القلوب والأبدان ، فيمرض و يقتل و يفرق بين المرء وزوجه . قال : واختلفوا هل يكفر الساحر أولا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر . و به قال مالك - رحمه الله - وأبو حنيفة وأحمد . قال أصحابه : إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقى شيء يضر فلا يكفر .

وقال الشافعى : رح إذا تعلم السحر . قلنا له : صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، و إن كان لا يوجب الكفر ، فإن اعتقد إباحته كفر . انتهى أى : كلام الموفق ، ثم ساق الشيخ عبد الرحمن بعض الآيات الدالة على أن السحر من الكفر ، كقوله تعالى : ﴿ وَما كَفَرَ سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ وغيرها ، وهم : يعنى الدروز والزنادقة والمنافقة ونحوهم يبعثون على نياتهم فى الدار الآخرة ، فمن صدق منهم فى التوبة قبلت باطنا ونفعه ذلك بلا خلاف ، كما ذكره ابن عقيل ، وموفق الدين بن قدامة . وقيل : يقبل الإسلام والتوبة من كل من ذكر حتى فى الدنيا . و إليه ذهب الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله سره - وقال فى قوله تعالى : ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ أى : ثبتوا عليه حتى ماتوا ، وقد توسط الناظم فى المسألة حيث قال : قلت و إن دلت

من الشخص التائب دلائل الهدى ، وقرائن الأحوال ، كما جرى لحسن العيلبونى ـ نسبة إلى عيلبون بلدة بالشام ـ كانت لطائفة من الدروز ومسكناً لهم ، فتاب من إلحاده حيث أنه كان درزيا واهتدى وأنقذه الله من الضلال . فإنه ـ أى العيلبونى ـ أذاع ـ أى أظهر ـ من أسرارهم ـ أى من أسرار الدروز ـ ما : أى شيئا كان فيه : أى فى ذلك الشىء المذاع . الهتك : أى الكشف عن أستارهم التى كانوا يكتمونها من الوقوع على المحارم ، كالنبات ، والأخوات ، وأكل الخنزير ، ورفض العبادات ، وإنكار الشرائع ، واعتقادهم أن كل ما حرمته الشريعة فهو مباح لهم .

قلت : وقد شاركهم البابية فى أكثر هذه القبائح ، وزادوا عليها أعظم منها قبحا ، ومن تتبع تواريخ الأمم التى اختلفت فى الديانات لم يجد أكفر من هذه الطائفة الملعونة ، فقد ألف كل طاغوت من طواغيتهم هذيانا يزعم أنه قرآن ، وفيه من الفضائح ما يستحى الإنسان من ذكره أبعدهم الله ، وكان العيلبونى للدين القويم ، والهدى المستقيم ناصرا باتباعه فضلا ، فصار منا : أهل الحق . باطنا : أى فى الباطن وظاهراً : فهو مسلم مقبول الإسلام . وكان العيلبونى شاعراً لبيبا أخذ عن علماء مصر ، ودمشق ، وجاور بها ، ثم ارتحل إلى عكا ومات بها سنة ألف وخمس وثمانين ـ رحمه الله تعالى ـ فكل زنديق : لا يتدين بدين ، وكل مارق : من أهل البدع ، وكل جاحد : من درزى ودهرى وغيرهما ، وكل ملحد : فى آيات الله ومنكر لشىء مما ثبت بالضرورة من الشريعة . منافق : أى ذى نفاق إذا تاب مما هو عليه . واستبان : أى بان وظهر صحة إيمانه ونصحه للدين القويم ، فإنه : أى هذا التائب يقبل منه ذلك الرجوع والتوبة عن يقين ، وهو الحكم الجازم المطابق للواقع ، وسنده قوله تعالى : ﴿ إلاّ الذينَ تابوا وأصلحوا و بيّنوا فأولئك أتوب عليهم ﴾ الآية .

فصل

في الكلام على الإيمان

وهو لغة : التصديق . واصطلاحا : تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه ، وهو تصديق تام قائم بالقلب مستلزم لما وجب من الأعمال وأعمال الجوارح ، فإن هذه لوازم الإيمان التام . وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم. ولهذا قال :

إيماننا قول وقصد وعمل   تزيده التقوى وينقص الزلل

قوله : إيماننا أي أهل السنة اتباع الأثر قول باللسان ، فمن لم يقر ويصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى مصدقا ، فليس بمؤمن . وقصد : أي عقد بالجنان ، فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها بقلبه ، فهو منافق وليس بمؤمن .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ فنفى الله الإيمان عن المنافقين . وعمل : بالأركان . وهذا هو اللفظ الوارد عن السلف .

قال البخاري في صحيحه : «الإيمان قول وعمل » قال الحافظ في فتح الباري: وهذا اللفظ الوارد عن السلف الذين أطلقوا ذلك . قال : والمراد بالقول : النطق بالشهادتين . وأما العمل فالمراد به : ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات . تزيده : أي الإيمان . التقوى : وهي التحرز بطاعة الله عن مخالفته ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه . وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات ، كما قال الشاعر .

خل الذنوب صغيرها   وكبيرها فهو التقى

واصنع كماش فوق أر   ض الشوك يحذر ما يرى

لاتحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وينقص الإيمان بارتكاب الزلل وتعاطيه ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة .

قال تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ .

ونحن فى إيماننا نستثنى من غير شك فاستمع واستبن

قوله : ونحن . أى أهل السنة أتباع الأثر فى إيماننا الذى سبق تعريفه نستثنى فيقول أحدنا :أنا مؤمن إن شاء الله من غير شك منافى ذلك ، والشك :التردد بين طرفين لامزية لأحدهما على الآخر . فاستمع : أى اطلب سماع أدلة ذلك . واستبن ـ بسكون الباء لإقامة الوزن ـ أى اطلب بيانه بأدلة النقلية والعقلية المفصلة فى ذلك. وأحسن كتاب فى ذلك وأجمعه ـ فيما علمت ـ كتاب [الإيمان] للإمام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله سره ـ قال رحمه الله فيه : وأما الاستثناء فى الإيمان بقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله ، فالناس فيه على ثلاثة أقوال:منهم من يوجبه ، ومنهم من يحرمه ، ومنهم من يجوّز الأمرين باعتبارين . وهذا أصح الأقوال ، فالذين يحرمونه هم : المرجئة والجهمية ونحوهم ، ممن يجعل الإيمان شيئاً واحداً يعلمه الإنسان من نفسه ، ثم أطال الكلام بما يملأ القلب نورا وإيمانا .

نتابع الأخيار من أهل الأثر ونقتفي الآثار لأهل الأثر

قوله : نتابع . أى فى اعتقادنا الجازم . الأخيار : من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأثر على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم .ونقتفى :أى نتبع الآثار المأثورة عن الله ، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم . لانتابع أهل الأشر : أى البطر من كل متحذلق من الجهمية ، والمرجئة ، والكرامية وسائر المبتدعة ،فبيننا و بينهم من الفرق ، كما بين القدم والفرق .

ولا تقـــل إيماننا مخلوق وقديم هكـذا مطلوق
فإنه يشمل للصـــلاة ونحوها من سائر الطاعات

قوله : ولا تقل . أى أيها الأثرى إيماننا الذى هو قول اللسان ، وعقد الجنان ، وعمل الأركان مخلوق لدخول الأعمال فيه التى من جملتها : الصلاة المشملة على فاتحة الـكتاب القديم ، ولدخول الأقوال التى من جملتها : لا إله إلا الله كلمة الإخلاص التى هى من كلام الله تعالى . قال تعالى : ﴿ فاعلَمْ أنهُ لا إله إلا الله ﴾ ولا تقل إيماننا قديم لدخول أفعالنا فيه من الركوع ، والسجود ، والقيام ، والقعود، بل هكذا مطلوق عن القيود ، فإنه : أى الإيمان يشمل للصلاة المشروعة ويشمل لنحوها . أى نحو الصلاة من سائر : أى بقية الطاعات جمع طاعة ، والمراد بها هنا : كل عبادة . وفى اصطلاح الفقهاء : كل عبادة غير واجبة ، وحينئذ فلابد من التفصيل . ويرحم الله الإمام ابن القيم حيث قال :

فعليك بالتفصيل والتمييز فالإ طلاق والإجمال دون بيان
قدأفسدا هذاالوجودوخبطاالأ ذهان والآراء كل زمان
ففعلنا نحو الركوع محدث وكل قرآن قديم فابحثوا

قوله : ففعلنا . أى معشر الخلق نحو الركوع والسجود فى الصلاة وسائر أفعال الخلق محدث ؛ لأنه مسند إلى العبد ومضاف إليه ، والله خالق العباد وأفعالهم ، وكل ما كان من قرآن فهو قديم غير مخلوق إذ هو كلام الله ، وكلامه تعالى قديم ، والـكلام صفة من صفات كماله ، فهو سبحانه تكلم ويكلم من أطاعه ، والأدلة على ذلك من الـكتاب والسنة أظهر شىء وأبينه .

قال العـلامة الشيخ عبد الرحمن فى فتح المجيد : وهذا هو الذى عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله تعالى ، وإن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ، ولم يزل متصفا به ، فهو حادث الآحادقديم النوع ، كما يقول

ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعى وأحمد وسائر الطوائف ، كما قال تعالى : ﴿ إنما أَمْرُه إِذَا أراد شَيْئا أَنْ يقُولَ لهُ كُنْ فَيَكُون ﴾ فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال ، والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضاً ، وذلك فى القرآن كثير . إلى أن قال : قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فإذا قالوا لنا ــ يعنى النفاة ــ فهذا يلزم أن تكون الحوادث قائمة به . قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل ، ولفظ الحوادث مجمل ، فقد يراد به الأمراض والنقائص ، والله تعالى منزه عن ذلك ، ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة . والقول الصحيح : هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون : لم يزل الله متكلما إذا شاء . كما قال عبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما من أئمة السنة . انتهى .

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن : ومعنى قيام الحوادث به تعالى قدرته عليها وإيجاده لها بمشيئته وأمره . والله اعلم .

وقوله : فابحثوا . تمم به البيت . والبحث : التفتيش عن دقائق المعانى .

قال الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ من قال : الإيمان مخلوق كفر ، ومن قال غير مخلوق ابتدع .

قال الحافظ عبد الغنى : وإنما كفر من قال : بخلقه ، لأن الصلاة من الإيمان ، وهى تشتمل على قراءة وتسبيح ، وذكر الله عز وجل ، ومن قال : بخلق ذلك كفر . وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ، ومن قال بقدم ذلك ابتدع .

ووكل الله من الكرام   اثنين حافظين للأنام

فيكتبان كل أفعال الورى   كما أتى بالنص من غير امترا

قوله : ووكل الله سبحانه وتعالى : أى ومما يجب الإيمان به أن الله تعالى وكَّل من الملائكة الكرام ـ وصفهم بالكرم لما جاء بالكتاب والسنة من وصفهم بذلك ـ وهم ذوات قائمة بأنفسها ، قادرة على التشكل بالقدرة الإلهية ، كما ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

وقد حكى غير واحد من المحققين : الاتفاق على أن الملائكة لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا ينكحون ، يسبحون الليل والنهار لايفترون . اثنين : مفعول ، وكل حافظين للأنام ، كسحاب الخلق من جميع ما على وجه الأرض ، والمراد هنا من الإنس . فيكتبان : يعنى الملكين الحافظين . كل أفعال الورى : كفتى الخلق ، كما أتى فى النص القرآنى . قال تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافظِين * كِرَامًا كاتبين * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُون﴾ . وقال تعالى : ﴿عن اليمين وعن الشمال قَعيد * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيهِ رَقيبٌ عتِيد﴾ . من غير امترا : أى شك .

قال المحققون : ـ منهم ابن حمدان ـ فى نهاية المبتدئين : الرقيب ، والعتيد : مَلَكان موكلان بالعبد ، يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله ، ولا يفارقان العبد بحال . وقيل : بل عند الخلاء .

وقال الحسن : إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين : عند غائطه ، وعند جماعه . ومفارقتهما للمكلف حينئذ لايمنع من كتبهما مايصدر منه فى تلك الحال ، كالاعتقاد القلبى يجعل الله لهما أمارة على ذلك . والصحيح من مذهبنا كالمالكية ، كتب حسنات الصبى .

قال علماؤنا : يكتب له ولا يكتب عليه . واختلف العلماء ، هل للكافر حفظة أو لا ؟ الأكثر : نعم . قال بعض المالكية : ولا يصح غيره ، وصوبه النووى . وللعلماء فيه كلام طويل لا يليق ذكره بهذا المختصر .

الباب الرابع
في ذكر السمعيات

وهى التى طريق العلم بها الكتاب أو السنة والآثار مما ليس للعقل فيه مجال ، ويقابله ما يثبت بالعقل وإن وافق النقل ، فما كان طريق العلم به العقل يسمى العقليات والنظريات ، ولهذا يقال لعلماء هذا الشأن ، النظار ، وقد أشار إلى ذكر المقصود بقوله :

وكل ما صح من الأخبار　　أو جاء فى التنزيل والآثار

من فتنة البرزخ والقبور　　وما أتى فى ذا من الأمور

قوله : وكل ما . أى حكم صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام ، أو خبر من الأخبار النبوية . أو جاء فى التنزيل : أى القرآن وما صح فى الآثار السلفية عن الصحابة مما ليس للعقل فيه مجال ، فإنه يشعر بأنهم إنما تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . من فتنة البرزخ : الفتنة الامتحان والاختبار ، وفى حديث الكسوف : « إنكم تفتنون فى قبوركم » يريد مسألة منكر ونكير .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عنى تفتنون ، وعنى تسألون » . أى تمتحنون بى فى قبوركم ، ويتعرف إيمانكم بنبوتى . والبرزخ : قال فى القاموس : البرزخ : الحاجز بين الشيئين من وقت الموت إلى القيامة ، من مات دخله . وسمى برزخاً : لكونه حاجزاً بين الدنيا والآخرة . وما أتى : أى والهول الذى أتى عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه . فى ذا : اسم الإشارة راجع إلى ما تقدم من فتنة البرزخ والقبور . من الأمور العجيبة والأشياء الغريبة التى منها : سؤال الملكين، فالإيمان بذلك واجب لثبوته عن النبى صلى الله عليه وسلم فى عدة أخبار يبلغ مجموعها التواتر . وقد أخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب عن النبى

صلى الله عليه وسلم أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويُضِلُّ الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء ﴾ نزلت فى عذاب قبر زاد مسلم يقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ونبيى محمد . فذلك قوله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ .

وفى رواية للبخارى : « إذا أقعد المؤمن فى قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فذلك قوله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ الآية .

وإِن أرواح الورى لم تعدم　　مع كونها مخلوقة فاستفهم

قوله : وإن أرواح الورى : أى مما ينبغى أن يعلم : أن أرواح الورى أى الخلق ، والمراد به بنوا آدم والجن ؛ لأن التكليف يشملهم ، فهو من إطلاق الكل مراد به البعض ، فيكون مجازا مرسلا . لم تعدم : بموت الأبدان التى كانت فيها ، والأرواح : جمع روح ، وهى جسم ممتزج بالبدن امتزاج الماء بالعود الأخضر . مع كونها : أى الأرواح مخلوقة : لله تعالى ومحدثة .

فاستفهم : أى اطلب علم ذلك من مظانه وحاصل ذلك أنه ذكر مسألتين عظيمتين :

الأولى : أن الروح مخلوقة ، وقد اتفقت الأمة وأئمتها على ذلك ، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

الثانية : أنه لا يلحقها فناء ولا عدم ؛ لأنها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان ، وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد مفارقتها لأبدانها إلى أن يرجعها الله إليها ، ولو ماتت الأرواح لا نقطع عنها النعيم والعذاب ، وإلى هذا الاختلاف أشار المتنبىء بقوله :

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم　　إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

والمستثنى من الهلاك ثمانية ذكرها بعضهم فى قوله :

ثمانية حكم البقـــاء يعمها من الخلق والباقون فى حيز العدم
هي العرش والكرسى نار وجنة وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

وقد نص الإمام أحمد : أن العرش لا يبيد ولا يفنى ؛ لأنه سقف الجنة ، والله سبحانه وتعالى عليه فلا يهلك ولا يبيد . والعجب ــ بالفتح ــ أصل الذنب ومؤخر كل شيء ، كما فى القاموس : ودلائل بقاء هذه الأشياء مفصلة فى محالها . وأما قوله تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فالمراد : كل شيء كتب الله عليه الهلاك والفناء ، لا ما خلقه الله للبقاء .

فكل ما عن سيد الخلق ورد من أمر هذا الباب حق لا يرد

قوله : فكل ما أى : أى شيء عن سيد الخلق ــ أى أجلّهم ــ وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . ورد : أى بالأسانيد المقبولة . من أمر أى : أمور هذا الباب الذي مناطه السمع من الكتاب والسنة و إجماع السلف ، فكل ذلك حق يجب اعتقاده والإيمان به لصحة النقول به ، فلا يرد شيء من ذلك لثبوته عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

وما أتى فى النص من أشراط فكله حق بلا شطاط

قوله : وما أتى فى النص : أى القرآن أو الحديث النبوي. من أشراط : جمع شرط ، وهى أمارات الساعة وعلاماتها . فكله : أى كل الذى أتى فى النص من الأشراط والعلامات حق واقع ، ويقين ليس له مدافع . بلا شطاط : كسحاب وكتاب . أى من غير بعد . والمعنى : أن كل ما ثبت بالنصوص من أشراط الساعة حق لا بعد فيه ولا عقل ينافيه .

منها الإمام الخاتم الفصيح   محمد المهدى والمسيح

قوله منها : أى أشراط الساعة التى وردت بها الأخبار . الإمام : المقتدى به الخاتم للأئمة الفصيح اللسان ؛ لأنه من صميم العرب محمد المهدى : هذا اسمه واسم أبيه عبد الله ، لما روى أبو نعيم من حديث أبى هريرة مرفوعا : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد ، لطول الله ذلك اليوم حتى يلى رجل من أهل بيتى يواطى اسمه اسمى ، واسم أبيه اسم أبى يملأها ـ أى الأرض ـ قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورا » .

وقد ورد فى هذا الباب أحاديث كثيرة لم يثبت منها حديث واحد ، والمصنف إنما ذكر المهدى لبيان أنه قد جاءت بذكره أحاديث تنبىء بمجيئه لا أنه مما يجب اعتقاده ، فلا نعتقد بمجىء هذا المهدى ، ولا ندين الله به ، إذ مبنى الاعتقاد اليقين ، ومن أراد تحقيق هذه المسألة ، فليراجع مقدمة ابن خلدون ، فقد أفاد فيها وأجاد ، ومنها المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام ، وهو أن ينزل من السماء ، إذ هو لم يمت حتى الآن ، وذلك مستنبط من القرآن ، وجاءت به السنة . أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ﴾ أى ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان . وأما السنة : فأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية » الحديث ـ وأما تسمية المسيح ، فقيل : لأن زكريا مسحه . وقيل: لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ ، فهو مسيح الهدى ، ويقتل مسيح الضلال ، كما قال:

وأنه يقتـــل للدجال   بباب لُدٍّ خل عن جدال

قوله: وإنه أى مسيح المهدى يقتل بأمر الله تعالى . للدجال : أى الكذاب ، وسمى دجالا لتمويهه على الناس وتلبيسه ، ويخرج بخرسان ـ كما فى سنن الترمذى ـ

ويتبعه سبعون ألفا من يهود أصفهان ـ كما فى صحيح مسلم ـ وإنما سمى مسيحا ؛ لأن أحد عينيه ممسوحة لا يبصر بها ، ويقتله سيدنا عيسى عليه السلام بباب لُدٍّ ـ بضم اللام ـ قال ياقوت : هى قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين ببابها يدرك عيسى بن مريم فيقتله ، وقد دل على ذلك حديث فى مسند الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ خل عن جدال : فى أمر الدجال ، فلا تجادل فى مجيئه وقتل المسيح إياه لورود ذلك فى الأحاديث ، والواجب علينا قبول ما صح منها ، وإن لم تبلغه عقولنا .

وأمر يأجوج ومأجوج أثبت فإنه حق كهدم الكعبة

قوله : وأمر ، مفعول مقدم لقوله : أثبت وهو مضاف ، ويأجوج : مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة للعلمية والعجمة ، ومأجوج : معطوف عليه مجرور بالفتحة أيضا نيابة عن الكسرة . أثبت : أى اعتقد ثبوته ، فإنه أى أمر يأجوج ومأجوج يعنى : خروجهم حق ثابت . قال تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجُوج ومَأجُوج وهم من كل حدبٍ ينسلون ﴾ فمجيئهم قطعى يجب الإيمان به . قال المؤرخون : أولاد نوح ثلاثة : سام ، وهو أبو العرب ، والعجم ، والروم ، وحام : أبو الحبشة والزنج والنوبة ، ويافث : أبو الترك والصقالبة . ويأجوج ومأجوج فخروجهم ثابت كثبوت هدم الكعبة ، كما روى البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » وقوله : ذو السويقتين : أى صاحبها ، وهما تصغير ساقين أى : دقيق الساقين . واختلف العلماء متى يكون ذلك ؟ فقيل : بعد خروج الدابة . وقيل : بعد الآيات كلها قرب قيام الساعة حين ينقطع الحاج ولا يبقى فى الأرض من يقول الله الله .

وأن منها آية الدخان وأنه يذهب بالقرآن

قوله : و إن منها أى : من أشراط الساعة التى ورد النص بها آية الدخان . وهى ثابتة بالكتاب والسنة . أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ فَارتَقِبْ يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو دخان قبل قيام الساعة يدخل فى أسماع الكفار والمنافقين ، و يعترى المؤمن كهيئة الزكام ، وتكون الأرض كلها كبيت أو قد فيه ، ولم يأت بعد وهو آت . وأما السنة : ففى صحيح مسلم من حديث حذيفة مرفوعا « أنها ـ أى الساعة ـ لن تقوم حتى تروا عشر آيات » فذكر منها الدخان وأنه الضمير اللشان و يذهب : بالبناء للمفعول بالقرآن العظيم ـ يعنى أن من أشراط الساعة : أنه يرفع القرآن فلا يبقى فى المصاحف ولا الصدور منه حرف واحد . وقد تقدم ذكر ماحكاه الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية عن السلف : من أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق . منه بدا و إليه يعود ، وأن معنى و إليه يعود ، ماجاء فى الآثار : أن القرآن يسرى به حتى لايبقى فى المصاحف منه حرف ، ولا فى القلوب منه آية .

طلوع شمس الأفق من دبور　　　كذات أجياد على المشهور

قوله : طلوع أى : ومن أشراط الساعة طلوع شمس الأفق : هو الناحية ؛ والجمع : آفاق . والأفق : ما ظهر من نواحى الفلك وهو المراد هنا . من دبور ـ بفتح الدال المهملة ـ جهة المغرب ؛ لأنها تدابر باب الكعبة ، وتسمى الريح التى تهب من جهة المغرب دبوراً ، وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » رواه الشيخان عن ابن عباس .

قال العلماء : طلوع الشمس من مغربها ثابت بالسنة الصحيحة ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين ﴿ لاينفع نفسا إيمانها ﴾ الآية » .

وقال جمهور المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ يوم يأتى بعضُ آياتِ ربِّك لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنَتْ من قبلُ أو كَسَبَتْ فى إيمانِها خيراً ﴾ إنها طلوع الشمس من مغربها . كذات أجياد : يعنى أن طلوع الشمس من مغربها من أشراط الساعة وعلاماتها : كذات أجياد : وهى الدابة التى تخرج منه . وذات : بمعنى صاحبة ، وأجياد : أرض بمكة أو جبل بها . ويقال فيه : جياد ـ بلا همزة ـ ولما كان موضع خروجها مختلفا فيه قال على المشهور : أى من الأقوال . والمقصود بيان أن خروج الدابة من علامات الساعة التى يجب الإيمان بها . قال تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ اختلف فى معنى هذا الوقوع . فقال قتادة : وجب الغضب عليهم . وقيل : وقع القول بموت العلماء ، وذهاب العلم ، ورفع القرآن . وذلك إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . قاله ابن عمر وجواب الشرط قوله : ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ قيل : تكلم الموحدين ببطلان سوى دين الإسلام . وقيل : تكلمهم بما يسؤهم . وقيل : تكلمهم بقوله تعالى : ﴿ إن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون ﴾ قال ابن عباس : أى بخروجها ؛ لأن خروجها من الآيات .

وآخر الآيات حشر النار   كما أتى فى محكم الأخبار

قوله : وآخر الآيات . أى آيات الساعة وعلاماتها الدالة على قربها حشر النار للناس من المشرق إلى المغرب ، ومن اليمن إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام ، كما أتى ذلك مصرحا به فى محكم الأخبار . ففى صحيح مسلم من حديث حذيفة ابن أسيد الغفارى أنه صلى الله عليه وسلم أخبر ببعض أشراط الساعة . وقال : « وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » وهذا لا يعارض مافى

البخارى عن أنس مرفوعا : « أما أول أشراط الساعة : فنار تخرج من المشرق ، فتحشر الناس إلى المغرب » فقد قال غير واحد من العلماء : إنهما ناران : إحداهما : تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، والثانية : تخرج من اليمن فتطرد الناس إلى المحشر الذى هو أرض الشام ، فلعل إحدى النارين فى أول الآيات والأخرى فى آخرها ، ومع هذا فقد اختلف العلماء فى حشر الناس من المشرق إلى المغرب . هل يوم القيامة أو قبله ؟ فقال القرطبى والخطابى ، وصوبه القاضى عياض : إن هذا الحشر يكون قبل يوم القيامة . وقال الحكيم الترمذى وأبو حامد الغزالى : هو يوم القيامة . والله أعلم .

فكلها صحت بها الأخبار وسطرت آثارها الأخبار

قوله : فكلها . أى الأشراط المذكورة . صحت بها الأخبار : أي بأكثرها ، فإن الأحاديث التى فيها ذكر المهدى لم تصح عند علماء الحديث ، وكلها قد سطرت : أى كتبت . آثارها : أى الآثار الدالة عليها . الأخيار : جمع خير . وهم ضد الأشرار ، والمراد بهم علماء الأمة من التابعين وتابعيهم ، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين .

واجزم بأمر البعث والنشور والحشر جزما بعد نفخ الصور

قوله : واجزم . أى جزم إيقان و إذعان بأمر البعث بعد الموت و النشور من القبور ، والحشر لأجل الجزاء ، وفصل القضاء . جزما : مصدر مؤكد لعامله الذى هو اجزم . بعد : ظرف زمان . نفخ الصور : المراد نفخة البعث ، وفى الترمذى وحسنة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما الصور ؟ قال : « قرن ينفخ فيه » وحاصل ما ذكر فى هذا البيت أربعة أشياء : البعث ، والنشور ، والحشر ، والنفخ فى الصور .

أما البعث فالمراد به : المعاد الجسمانى . فإنه المتبادر عند الإطلاق ، ويجب الإيمان به واعتقاده ويكفر منكره .

وأما النشور : فهو يرادف البعث فى المعنى . يقال : نشر الميت ينشر نشورا إذا عاش بعد الموت . وأنشره الله: أى أحياه . ومنه قوله: ﴿ يوم البعث والنشور ﴾ .

وأما الحشر : فهو فى اللغة : الجمع . تقول : حشرت الناس إذا جمعتهم ، والمراد به : جمع أجزاء الإنسان بعد التفرقة ، ثم إحياء الأبدان بعد موتها .

وأما النفخ فى الصور : فهو ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، وهى التى يتغير بها العالم ويفسد نظامه . وهى المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فَوَاق ﴾ يقول تعالى : وما ينظر . أى ما ينتظر هؤلاء ؟ أى كفار مكة . إلا صيحة واحدة : وهى النفخة الكائنة عند قيام الساعة . مالها من فواق : فى محل نصب صفة لصيحة .

قال الزجاج: فواق ــ بفتح الفاء وضمها ــ لغتان بمعنى واحد ، وهو الزمان الذى بين حلبتى الحالب ، ورضعتى الراضع .

وقال السدى : ما لها من إفاقة ، ونفخة الصعق وفيها هلاك العالم . قال تعالى: ﴿ ونفخ فى الصور فَصَعِقَ مَن فى السموات ومَن فى الأرض إلا من شاء الله ﴾ ، وقد فسر الصعق بالموت ونفخة البعث ، وقد دل عليها قوله تعالى : ﴿ و نُفِخَ فى الصور فإذا هم مِنَ الأجداثِ إلى رَبِّهِم يَنْسِلُون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قِيامٌ ينظرون ﴾ .

كذا وقوف الخلق للحساب والصحف والميزان للثواب

قوله : كذا . أى كما يجب الإيمان بالبعث ، وما عطف عليه يجب الجزم ، والإيمان بأمر وقوف الخلق من الإنس ، والجن ، والدواب ، والطير . قال تعالى : ﴿ وحشرناهم فلم نُغَادِرْ منهم أحداً ﴾ والضمير المنصوب فى قوله تعالى : وحشرناهم .

مراد به الخلائق للحساب الثابت بالكتاب والسنة ، وإجماع أهل الحق بلا ارتياب . قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى فى حق أعدائه : ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾ .

قال الثعلبي : الحساب . تعريف الله عز وجل الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم ، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك . يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا ﴾ أحصاه الله ونسوه . وكذا وقوف الخلق لأخذ الصحف ، جمع : صحيفة وهى التى كتبتها الملائكة ، وأحصوا ما فعله كل إنسان من سائر أعماله فى الدنيا القولية والفعلية .

قال تعالى : ﴿ وإذا الصحف نُشِرَتْ ﴾ أى فتحت وبسطت للحساب ؛ لأنها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب . فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم مافيها ، فيقول: ﴿مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟﴾ ويجوز أن يراد : نشرت بين أصحابها . أى فرقت بينهم ، وكذا وقوف الخلق لأجل الميزان للثواب : أى ثواب الأعمال الصالحة ، وبيان السيئات الفاضحة .

قال تعالى : ﴿ ونضعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً ، وإنْ كان مِثْقَالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بها وكَفَى بِنَا حَاسِبِين ﴾ والحق أن الكفار لايقيم الله تعالى لهم وزنا لقوله تعالى : ﴿ فلا نُقِيمُ لهم يوم القيامة وَزْنًا ﴾ ومن قال : توزن أعمالهم لوروده فى ظواهر الآيات . قال مجيبا عن الآية الكريمة: بأنه تعالى لا يقيم لهم وزنا نافعا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وقَدِمْنَا إلى ما عَمِلُوا مِنْ عملٍ فجعلناه هَبَاءً منثورا ﴾ . أى كالهباء فى عدم نفعه وحصول فائدة . والحق أن مؤمنى الجن كالإنس فى الوزن ، وكافرهم ككافرهم.

قال العلامة الشيخ مرعى : إن المراد بالميزان : الميزان الحقيقى لا مجرد العدل خلافا لبعضهم .

قال العلماء : له لسان وكفتان توزن به صحائف الأعمال .

وقال ابن عباس : توزن الحسنات فى أحسن صورة ، والسيئات فى أقبح صورة .

كذا للصراط ثم حوض المصطفى فيا هنا لمن به نال الشفا

قوله : كذا الصراط . أى يجب الإيمان به ؛ لأنه حق ثابت ، وهو لغة : الطريق الواضح ، ومنه قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

وفى الشرع : جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون ، فهو قنطرة بين الجنة والنار ، وخلق من حين خلقت جهنم ، ونقل فى كنز الأسرار عن بعض أهل العلم : أنه يجوز أن يخلقه الله تعالى حين يضرب على متن جهنم . والله أعلم . ثم اجزم بعد البعث ، والنشور ، وأخذ الصحف والمرور بثبوت حوض المصطفى ، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه حق بإجماع أهل الحق ، وقد ورد فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنه – عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حوضى مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه عدد نجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبداً » . فيا هنا الهنىء ما أتاك بلا مشقة ، كأنه يقول : أيها الشراب السائغ الهنىء الآتى بلا مشقة . أقبل لمن : أى على أى شخص من ذكر أو أنثى . به : أى سبب الشرب منه . نال : أى أصاب . ومراده أعطى الشفا من ظمأ ذلك اليوم .

عنه يذاد المفترى كما ورد ومن نحا سبل السلامة لم يرد

قوله عنه : أى عن حوض المصطفى صلى الله عليه وسلم . يذاد : أى يطرد المفترى من الفرية – بكسر الفاء – أى الكذب ، فالمطرود عن حوضه صلى الله عليه وسلم من كذب على الله ورسوله ، وأحدث فى الدين ما لم يأذن به الله ولا رسوله

كما ورد ذلك فى أحاديث منها : ما أخرجه الشيخان عن أبى مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن إلى رجال منكم إذا أهويت لأناولهم، اختلجوا دونى فأقول : إى رب أصحابى فيقال : إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك » قال فى جامع الأصول : اختلجوا إذا استبلوا وأخذوا بسرعة .

قال القرطبى : قال علماؤنا : كل من ارتد عن دين الله ، أو أحدث فيه مالا يرضاه الله ، ولم يأذن به ، فهو من المطرودين عن الحوض ، وأشدهم طراد من خالف جماعة المسلمين ، كالخوارج ، والروافض ، والمعتزلة . ومن أى : أى شخص نحا: أى قصد . سبل : جمع سبيل وهو الطريق . السلامة : أى البراءة من عيوب البدع المضلة وكبائر الذنوب ، فإنه يرد الحوض ولم يرد عنه لكونه متبعاً لا مبتدعاً سالكاً سبيل النجاة ، وأما من خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا ، وإن خدعته نفسه بأنه معظم لرسول الله ، ومحب له ، فهذا جاهل مغرور يقال له غدا عند الورود بعد أو سحقاً .

فكن مطيعا واقف أهل الطاعة   في الحوض والكوثر والشفاعة

قوله : فكن أيها الناظر السامع مطيعاً لما جاءت به الأخبار وصحت بمقتضاه الآثار من صريح المنقول ، وصحيح المعقول . واقف : أى اتبع أهل الطاعة من أهل السنة والجماعة فى اعتقاد ثبوت الحوض الذى تقدم ذكره ، واقف أهل السنة أيضاً فى اعتقاد ثبوت الكوثر لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو نهر فى الجنة كما فسره بذلك أكثر العلماء.وفى صحيح البخارى عن أنس –رضى الله عنه– قال : لما عرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال : « أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفاً. فقلت : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر » والذى عليه المحققون أن الكوثر غير الحوض ، وأن الحوض قبل الصراط .

قال القرطبى . والمعنى يقتضى ذلك ، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشا فناسب تقديمه لحاجة الناس ، وحج القاضى عياض أن الحوض بعد الصراط ،

وأن الشرب منه يقع بعد الحساب ، والنجاة من النار .

وقال ابن حمدان : يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة ، و بعد جواز الصراط . والله أعلم . واقف أهل الحق بثبوت الشفاعة لنبينا صلى الله عليه وسلم ، ولغيره ممن يأتى ذكرهم ، وهى لغة : الوسيلة والطلب . وعرفا : سؤال الخير للغير . كذا عرفها بعضهم ، والحق : أنها مشتقة من الشفع الذى هو ضد الوتر ، فكان الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له ، والمشفع ـ بكسر الفاء ـ الذى يقبل الشفاعة ، والمشفع الذى تقبل شفاعته ، فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو الشافع المشفع ، ولكن شفاعته ما تكون إلا للمخلصين الموحدين ، ولما قال له صلى الله عليه وسلم أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال : « من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبى دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، و إنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » فهى نائلة ـ إن شاء الله ـ من لا يشرك بالله شيئاً ، وأما من ابتدع فى الدين وأشرك مخلوقا فى عبادة رب العالمين سواء كان مَلَكا ، أو نبيا ، أو ولياً ، أو ادعى أن الأموات ينفعون مَن دعاهم والتجأ إليهم ، وأنهم وسائل بينه و بين الله، فهذا لا تناله شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ هى لأهل الإخلاص ، وهـذا ليس بمخلص ، بل هو مشرك وافق باعتقاده اعتقاد المشركين القائلين : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى ﴾ والشفاعة ما تكون إلا بعد الإذن والرضى .

قال تعالى : ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ ، وقال تعالى: ﴿وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى ﴾ وأصل شرك العالم طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم ، ولم يعلم الجاهلون أن الأموات قد انقطع عملهم ، فلا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فضلا عمن

استغاث بهم وجعلهم وسائل وشفعاء بينه و بين الله .

فإنهـــا ثابتة للمصطفى ... كغيره من كل أرباب الوفا
من عالم كالرسل والأبرار ... سوى التي خصت بذي الأنوار

قوله فإنها : أى الشفاعة العظمى وغيرها من الشفاعات الآتى ذكرها ثابتة بالنقل الصحيح ، بل المتواتر للنبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أنها ثابتة لغيره : أى غير نبينا عليه الصلاة والسلام . من كل أرباب : أى أصحاب الوفا بامتثال الأوامر واجتناب النواهى من عالم عامل بعلمه ، كما روى البيهقى عن جابر مرفوعا : « يبعث العالم والعابد فيقال للعابد : أدخل الجنة ، و يقال للعالم : أثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم » كالرسل والأنبياء عليهم السلام ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « أنا أول شافع وأول مشفع » أخرجه مسلم عن أبى هريرة . وأخرج ابن ماجه والبيهقى عن عثمان بن عفان مرفوعا : « يشفع يوم القيامة الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » والأبرار : جمع بار . وهم الأتقياء الأخيار . فروى البيهقى وغيره عن أنس مرفوعا : « أن الرجل يشفع فى الرجل ، والرجلين ، والثلاثة يوم القيامة » والحاصل أن للناس شفاعات بقدر أعمالهم وعلو مراتبهم ، ولـكن لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه، سوى الشفاعات التى خصت بذى: أى بصاحب الأنوار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يشاركه فيها نبى مرسل ، ولا ملك مقرب .

وذكر الإمام ابن القيم أن الشفاعة ستة أنواع :

الأول : الشفاعة الـكبرى ، التى يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهى إليه صلى الله عليه وسلم فيقول : « أنا لها » وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم فى الموافق ، وهذه شفاعة يختص بها لا يشاركه فيها أحد .

الثانى : شفاعته لأهل الجنة فى دخولها . وقد ذكرها أبو هريرة فى حديثه الطويل المتفق عليه .

الثالث : شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع لهم أن لا يدخلوها .

الرابع : شفاعته فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون بذنوبهم ، والأحاديث بها متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أجمع عليه الصحابة وأهل السنة قاطبة ، وبدعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب ، ونادوا عليه بالضلال .

الخامس : شفاعته لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم ، وهذه مما لم ينازع فيها أحد ، وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً ، كما قال تعالى: ﴿ وأَنذِر به الذين يخافون أن يُحشَروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع ﴾ .

السادس : شفاعته فى بعض الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه ، وهذه خاصة بأبى طالب وحده .

وكل إنسان وكل جِنّة ... فى دار نار أَو نعيم جنة

هما مصير الخلق من كل الورى ... فالنار دار من تعدى وافترى

ومن عصى بذنبه لم يخلد ... وإِن دخلها يا بوار المعتدى

قوله : وكل إنسان . من بنى آدم ، فالإِنس والإنسان من البشر ، والواحد : إنس وإنسى: الجمع . أناسِيّ ، والمرأة إنسان وبالهاء عامية كما فى القاموس: وكل جنة ـ بكسر الجيم وتشديد النون المفتوحة ـ طائفة الجن . والجان : اسم للجن، أى كل واحد من الثقلين اللذين هما الإنس والجن لابد أن يكون فى إحدى الدارين : إما فى دار نار ، وهى دار البوار ومقر الكفار ، أو فى دار نعيم مقيم فى جنة المولى

الكريم الرؤوف الرحيم ، فكل واحدة من الجنة والنار ، حق ثابت بالكتاب والسنة و إجماع الأمة ، وكل ما هو كذلك ؛ فالإيمان به واجب ، والمراد من الجنة دار الثواب . ومن النار دار العقاب ، ولقد أحسن القائل :

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعرى بعد الموت ما الدار
الدار جنة خلد إن عملت بما يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك أىّ الدار تختار

وفى البيت الناظم جناس محرف كقولهم : جبة البُرد جنة البَرد ، والمراد لفظ البُرد – بالضم – والبرد – بالفتح – وأما لفظ الجبة والجنة فمن الجناس اللاحق ، وسمى محرفا لانحراف هيئة أحد اللفظين عن الآخر . هما : أى الجنة والنار . مصير أى مرجع ومآب الخلق بعد البعث من الإنس ، والجن . أى لابد لكل واحد من الورى كفتى الخلق من الإنس والجن ، بل ومن الملائكة ، فإنهم يكونون فى الجنة . فالنار التى هى دار البوار . دار من : أى كل شخص تعدى طوره وخالف مولاه ، فكفر به أو بأحد من رسله ، أو بكتاب من كتبه ، وافترى فيما عبد فلم يقف عند حدود الله بل تجاوز . ما ومن : أى : أى شخص مؤمن بالله ورسوله ولو مبتدعا لم يحكم الشرع بكفره . عصى ربه بذنبه : أى بارتكاب ذنب غير مكفر ، كالقتل ، والزنا ، وأكل الربا وغير ذلك من الذنوب ، ومات على الإيمان ولم يتب مما ارتكبه لم يخلد فى النار ، وإن دخلها ليتطهر من الأوزار ، فإنه يخرج منها إما بشفاعة الشافعين ، أو برحمة أرحم الراحمين . يابوار المعتدى : أى ياهلاكه . وفيه إشارة إلى تقبيح ما ذهبت إليه الخوارج والمعتزلة من زعمهم خلود المؤمن المصر فى النار . والحق مذهب أهل الحق .

وجنة النعيم للأبرار مصونة عن سائر الكفار

قوله : وجنة النعيم . اعلم أن للجنة عدة أسماء باعتبار صفاتها ومسماها واحد

باعتبار الذات ، فمن جملة تلك الأسماء : جنة النعيم ، سميت بذلك لما تضمنته من الأنواع التى يتنعم بها من المأكول ، والمشروب ، والملبوس . وغير ذلك من أنواع النعيم الثابتة . للأبرار : جمع بار . وهو كثير البر الذى هو اسم جامع للخير . مصونة تلك الجنة : أى محفوظة . عن سائر الكفار : أى جميعهم فلا يدخلونها ؛ لأن الله تعالى أعدَّ لهم النار ، كما قال تعالى : ﴿ فاتَّقُوا النار التى وَقُودُها الناسُ والحجارة ، أُعِدّت للكافرين * وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار﴾ الآية .

واجزم بأن النار كالجنة فى وجودها وأنها لم تتلف

قوله واجزم : أى جزم إيقان و إذعان بأن النار وما فيها من أصناف العذاب موجودة الآن ومن قبل الآن ، كما أن الجنة وما فيها من النعيم المقيم موجودة الآن ومن قبله ، فالنار فى وجودها الآن ، كالجنة فهما موجودتان ، ولا تفنيان ، ولذا قال : واجزم أيضاً بأنها : أى النار لم تتلف أى ولن تتلف وتبيد .

فنسأل الله النعيم والنظر لربنا من غير ماشين غبر
فإنه ينظر بالأبصار كما أتى فى النص والأَخبار
لأَنه سبحانه لم يحجب إلا عن الكافر والمكذب

قوله : فنسأل الله العظيم . النعيم : المقيم فى جنات النعيم ، ونسأله سبحانه النظر لوجه ربنا مع أهل الطاعة . من غير ما شين . ما : زائدة لتأكيد النفى . والشين : ضد الزين . والمراد به العذاب ، فإنه سبحانه ينظر ــ بالبناء للمفعول ــ بالأبصار فى دار القرار . كما أتى : أى جاء ذكر الرؤية فى النص القرآنى ، وأصل النص أقصى الشيء وغايته ، وقول الفقهاء نص القرآن ، ونص السنة : أى ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام ، وكما أتى : فى الأخبار النبوية الثابتة . ففى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلى قال : كنا جلوسا مع النبى صلى الله عليه وسلم فنظر إلى

القمر ليلة أربعة عشر . فقال: « إنكم سترون ربكم عيانا ، كما ترون هذا لاتضارون في رؤيته » والتشبيه للرؤية بالرؤية لا للمرى بالمرى ، كما قاله الأئمة ، والمعنى : ترون ربكم رؤية حقيقته ينزاح معها الشك ، وتنتفى معها الريبة ، كرؤيتكم القمر لا ترتابون ولا تمترون ، وفي لفظ : لا تضامون ، وروى ـ بتخفيف الميم وضم أوله ـ من الضيم . أى لايلحقكم فى رؤيته ضيم ، ولامشقة ـ و بتشديدها والفتح ـ على حذف إحدى التاءين . والأصل لاتتضامون . أى لايضام بعضكم بعضا ، كما يفعل الناس فى طلب الشيء الخفى الذى لا يسهل إدراكه ، فيتزاحمون عند ذلك ينظرون إلى جهة يضام بعضهم بعضاً يريد أنكم ترونه وكل واحد فى مكانه .

لأنه سبحـــانه لم يحجب إلا عن الـكافر والمـكذب

قوله : لأنه . أى الرب سبحانه وتعالى لم يحجب ـ بالبناء للمفعول ـ أى لم يمتنع سبحانه من أن يمـكن عباده من رؤيته فى دار القرار ، إلا عن الـكافر بالله تعالى ، و بكل مكفر اتصف به ، فـكل من حـكم الشرع بكفره فهو محجوب عن رؤية ربه . وقد قال بعض الأئمة : ما حجب الله عز وجل أحداً عنه إلا عذبه ، ثم قرأ : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم * ثم يقال : هذا الذى كنتم به تـُكَذِّبون ﴾ .

قال الروية : ويحجب أيضاً عن المكذب برؤيته و بتكليمه لعباده المتقين .

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من لم يقل بالرؤية فهو جهمى ، ومن قال : إن الله لا يُرى فى الآخرة فهو كافر ، أو فقد كفر عليه لعنة الله وغضبه ، كائنا من كان من الناس أليس الله عز وجل يقول : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ .

الباب الخامس

في ذكر النبوة

ومن عظيم منة السلام ولطفه بسائر الأنام
إن أرشد الخلق إلى الأصول مبينا للحق بالرسول

قوله: ومن عظيم منة: الرب السلام. المنة: مأخوذة من المن، وهو الإحسان إلى من لايستثيبه، ولا يطلب الجزاء عليه. ومن أسمائه تعالى: المنان، والسلام، ومعناه: ذو السلامة من كل عيب ونقيصة. ومن عظيم لطفه: أي دفقه. بسائر: أي جميع. الأنام: أي الخلق، أو الإنس والجن. إن أرشد: أي هدى ودل الخلق من الثقلين إلى الوصول إلى معرفته تعالى وعبادته، والقيام بما شرعه من التكليف الذى ثمرته الفوز بالسعادة الأبدية. مبينا: أي مظهر النهج للحق وهو الحكم المطابق للواقع، ويطلق على الأقوال، والعقائد، والأديان، والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك. ويقابله الباطل. ومن أسمائه تعالى: الحق، أو من صفاته بحسب الاعتبار بالرسول متعلق بمبينا، والرسول كما تقدم إنسان أوحى إليه بشرع، وأُمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بتبليغه فنبيٌّ فقط، والأولى عدم حصرهم في عدد معين؛ لأن الحديث الوارد في ذلك ضعيف، وربما خالف قوله تعالى: ﴿منهم مَن قَصَصْنَا عليك ومنهم مَن لم نقصُص عليك﴾.

وشرط من أكرم بالنبوه حرية ذكورة كقوه
ولا تنال رتبة النبوة بالكسب والتهذيب والفتوه
لكنها فضل من المولى الأجل لمن يشاء من خلقه إلى الأجل

قوله: وشرط من: أي كل إنسان. أكرم ـ بالبناء للمفعول ـ أي أكرمه الله تعالى بالنبوة. من النبأ: أي الخبر، لأن النبي ينبىء عن الله أي يخبر. وقيل: من

النبوة ، وهى الشىء المرتفع ؛ لأن النبى مرتفع الرتبة على سائر الخلق . وحرية : خبر المبتدأ الذى هو شرط ، وذلك لأن الرق ، وصف نقص لا يليق بمقام النبوة ، وذكورة ، لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ فأثبت الرسالة للرجال الموحى إليهم ، وأشعر بنفى ذلك عن غيرهم ، فلا تكون أنثى نبية ، خلافاً لأهل التوراة الزاعمين نبوة مريم بنت عمران أخت موسى وهارون ، وخالف فى اشتراط الذكورة أبو الحسن الأشعرى ، وتبعه على ذلك أناس ، والحق اعتبار الذكورية . كقوة : أى كما يعتبر فيمن أكرمه الله بالنبوة أن يكون قوياً بأعباء ماحمل من ثقل النبوة ، والقوة : الطاقة . والجمع : قوى ـ بالضم و بالكسر ـ قال فى القاموس : القوة ضد الضعف ، ولا تنال ـ بضم أوله ـ أى لم تعط . رتبة : نائب الفاعل . والرتبة ، والمرتبة المنزلة . النبوة وكذا الرسالة بالكسب والجد والاجتهاد وتكلف أنواع العبادات ، وتهذيب النفوس . ولا تنال بالتهذيب : أى تنقية البدن وتصفية الأخلاق من الرذائل والاتصاف بالفضائل ، ولا تنال بالفتوة التى هى كرم النفس وتخليصها من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف الممدوحة . لكنها : أى النبوة ، وكذا الرسالة فضل و إنعام من الله المولى الأجل يؤتيه من يشاء ممن سبق علمه و إرادته الأزليان باصطفائه لها . فالله أعلم حيث يجعل رسالته لمن يشاء أن يكرمه بالنبوة ، فلا يبلغها أحد بعلمه ولا يستحقها بكسبه ، ولا ينالها عن استعداد ولايته ، بل يخص بها من يشاء من خلقه ، ومن زعم أنها مكتسبة ، فهو زنديق يجب قتله ؛ لأن كلامه يقتضى أن النبوة لا تنقطع ، وهو مخالف لنص القرآن ، إذ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين . وقوله إلى الأجل : مراده به أن النبوة فضل من الله ، ونعمة يمن بها على من يشاء من عباده من عهد آدم عليه السلام ، إلى أن بعث خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا خلاف للفلاسفة المشائين المجوزين اكتساب النبوة بزعمهم أن من لازم الخلوة ، والعبادة وذوام المراقبة ، وتناول الحلال و إخلاء نفسه من الشواغل العائقة عن

المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة ، انصقلت مرآة باطنه ، وفتحت بصيرة لبه لما لا يتهيأ له غيره من التحلى بالنبوة .

قال شيخ الإسلام : وهؤلاء عندهم النبوة مكتسبة ، وكان جماعة من زنادقة الإسلام يطلبون أن يصيروا أنبياء ــ أبعدهم الله ــ حيث كذبوا كتابه وخالفوه .

ولم تزل فيما مضى الأنباء من فضله تأتى لمن يشاء

حتى أتى بالخاتم الذى ختم به وإعلانا على كل الأمم

قوله : ولم تزل فيما . أى فى الزمن الذى مضى من الأزمان . الأنباء : جمع نبأ كالأنبياء والنبيين . من فضله : أى من فضل الله تعالى ولطفه ، لا من حيث أن ذلك واجب عليه تعالى تأتى بإبلاغ الشرائع وبيان الحق ، وإيضاح السبيل لمن يشاء سبحانه من الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، فلم تخل الأرض من داع يدعو إلى الله تعالى من لدن آدم إلى أن بعث محمد صلوات الله وسلامه عليهما ، فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى إجمالا فيما لم يعينوا ، كما دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ الآية . فدلت على الاكتفاء بذلك فى الإيمان لهم من غير تفصيل إلا من ثبتت تسميته ، فيجب الإيمان به على التعيين حتى : أى إلى أن أتى بالنبى الخاتم الذى ختم الله به النبيين والمرسلين ، وأكمل بدينه كل دين .

قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ . أى الذى ختمهم وختموا به فلا نبى بعده . وأخرج الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ من حديث العرباض بن سارية السلمى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين وأن آدم لمنجدل فى طينته » .

واستدل الإمام أحمد بهذا الحديث على أن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يزل على التوحيد منذ نشأ .

قال الحافظ ابن رجب : بل يستدل به على أنه صلى الله عليه وسلم ولد نبياً ، فإن نبوته وجبت له من حين أخذ الميثاق حيث استخرج من صلب آدم فكان نبياً قبل خروجه إلى الدنيا .

قال ابن عقيل : لم يكن صلى الله عليه وسلم على دين سوى الإسلام ، ولا كان على دين قومه قط ، و إعلاناً معشر أمته على كل الأمم الماضية . لقوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وَسَطا﴾ . أى عدولا خياراً ، وفضيلة هذه الأمة على الأمم المتقدمة ، و إن كان ذلك باختيار الله إلا أنه قد جعل له سبباً هو الفطنة ، والفهم ، واليقين ، وتسليم النفوس ، فاعتبر حالهم بمن قبلهم، فإن قوم موسى رأوا قدرة البارى فى شق البحر . ثم قالوا : اجعل لنا إلهاً ، ثم مال كثير منهم إلى عبادة العجل وعرضت لهم غزاة فقالوا : اذهب أنت ور بك فقاتلا ، فلم يقبلوا التوراة حتى نتق عليهم الجبل . إلى غير ذلك مما هو مذكور فى الكتاب العزيز ، وكذلك النصارى اعتقدوا أن الله جوهر ، والجواهر تتماثل ولا مثل للخالق ، ومقالاتهم فى عيسى وتثليثهم ودعواهم فيه الإلهية ، وأنه ابن الله ــ تعالى الله ــ عما يقولون علواً كبيراً .

وخصه بذاك كالمقام وبعثه لسائر الأنام

ومعجز القرآن كالمعراج حقاً بلا مين ولا اعوجاج

قوله وخصه : أى خص الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم دون سائر الأنبياء . بذاك : أى بكونه ختم به النبوة والرسالة فلا نبى بعده لقوله تعالى : ﴿ وخاتم النبيين ﴾ وختم الأعم يستلزم ختم الأخص بلا عكس ، والنبوة أعم من الرسالة، كما خصه بالمقام المحمود الذى هو الشفاعة العظمى ، وخصه ببعثه نبياً رسولا

لسائر الأنام إلى جميع الخلق من الإنس والجن ، وخصه بمعجز القرآن الذى أذعن لإعجازه ، واعترف بالعجز عن الإتيان بأقصر سورة من مثله أهل الفصاحة والبلاغة من سائر الأديان ، كما خصه بالمعراج إلى السماوات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، فكان قاب قوسين أو أدنى .

واختلف العلماء متى كان المعراج ؟ فقيل: فى رمضان فى السنة الثالثة عشرة من المبعث قبل الهجرة بثمانية أشهر ، وقيل : فى ربيع الأول قبل الهجرة بسنة ، وهذا قول ابن عباس وعائشة . وادعى ابن حزم الإجماع فيه ، وقيل : إنه ليلة سبعة وعشرين من شهر رجب . واختاره الحافظ عبد الغنى المقدسى الحنبلى ، وكان المعراج إلى السماء بجسده الشريف ، وروحه المقدسة ، كالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء حُقّ هذا حقاً ثابتاً . بلا مين : أى بلا كذب ولا ريب ، و بلا اعوجاج . يقال : اعوج اعوجاجاً إذا كان غير مستقيم ، أى لا تخرج عن الحق والاستقامة فى إثبات المعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والصحيح : أن الإسراء والمعراج ، كانا فى ليلة واحدة ، وأنهما كانا يقظة بالروح والجسد .

فكم حباه ربه وفضَّله   وخصه سبحانه وخوله

قوله : فكم حباه : أى أعطاه . والحباء : العطاء . ربه سبحانه وتعالى من مكرمة وكم فضّله على غيره بمزية من المزايا التى لا تحصى ، وكم خصه بخصوصيته . وخوله : أى ملكه . والمعنى : أنه سبحانه خص نبيه بخصائص كثيرة ، أوصلها بعضهم إلى ثلاثمائة . وقال بعض الحفاظ : الحق عدم حصرها وهو الصواب .

فصل

فى التنبيه على بعض معجزاته صلى الله عليه وسلم

ومعجزات خاتم الأنبياء كثيرة تجل عن إحصائى
منها كلام الله معجز الورى كذا انشقاق البدر من غير امترا

قوله ومعجزات : جمع معجزة مأخوذة من العجز الذى هو ضد القدرة . قال فى القاموس : ومعجزة النبي ماأعجز به الخصم عند التحدى والهاء للمبالغة . انتهى . والتحدى المنازعة فى الغلبة .

وقال ابن أحمد : إن المعجزة هى ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدى ابتداء ، بحيث لايقدر أحد عليها ، ولا على مثلها ، وعلى ما يقاربها ، فمعجزات خاتم الأنبياء يعنى : نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . والأنبياء : جمع نبى كما تقدم كثيرة جداً . تجل - بالكسر - أى تعظم . عن إحصائى : أى عدى وحفظى لكثرة أفرادها وتنوعها من الأقوال والأعمال . منها : أى من معجزات خاتم النبيين والمرسلين كلام الله الذى سمعه منه جبريل ، وسمعه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من جبريل عليه السلام . معجز الورى : الخلق إنسهم وجنهم ، وأولهم وآخرهم ، فهو معجز بنفسه ليس فى وسع البشر الإتيان بسورة من مثله ، خلافا لمن يقول بالصرفة ، فهو قول ضعيف كما سبق . كذا : أى من معجزاته صلى الله عليه وسلم . انشقاق البدر : أى القمر . من غير امترا : أى شك لوروده بالنص . ففى سنن أبى داود عن ابن عمر - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى الصحيحين عن أنس بن مالك: أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حَراءً بينهما . وفيهما من حديث ابن مسعود قال : انشق

القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا .

فصـــل

فى ذكر فضيلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأولى العزم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين

وأفضل العالم من غير امترا   نبينا المبعوث فى أم القرى

قوله : وأفضل العالم : العلوى والسفلى من مَلَك ، وبشر ، وجن ، فى الدنيا والآخرة. من غير امترا ، أى شك نبينا محمد المبعوث رسولا لكافة الناس . فى أم القرى : أى مكة المعظمة ، وفى تسميتها بذلك أقوال أقواها قول ابن عباس. سميت بذلك ، لأن الأرض دحيت من تحتها .

وقال ابن قتيبة : لأنها أقدمها ، وقد سماها الله تعالى بذلك ، كما فى قوله تعالى ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ وتسميتها بذلك دليل على فضلها على سائر البلاد ، ومن شرفها : أنها كانت لقاحا أى لاتدين لدين الملوك ، ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان ، وكان أهلها آمنين يغزون ولا يغزون ، ويسبون ولا يسبون ، ولم تسب قرشية قط فتوطأ قهراً ولا تجال عليها السهام ، وقد ذكر عزهم وفضلهم الشعراء فقال بعضهم :

أبوا دين الملوك فهم لقاح   إذا هيجوا إلى حرب أجابوا

وفضائل سيدنا رسول الله و بيان فضيلته على سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تحصر . ورضى الله عن حسان فلقد أحسن إذ قال :

أعز عليـــه للنبوة خاتم   من الله مشهور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه   إذا قال فى الخمس المؤذن اشهد

وشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمد

وقد روى الحاكم فى صحيحه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم ولد وخاتم النبوة بين كتفيه ، وقيل: إنه على كتفه الأيسر، وهو شامة دالة على نبوته يعرفه بها أهل الكتاب ، و يسألون عنها و يطلبونها ليقفوا عليها . لإخبار الأنبياء الأولين بها .

وبعده الأفضل أهل العزم   فالرسل ثم الأنبياء بالجزم

قوله : و بعده . أى بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الأفضل من سائر الخلق. أهل العزم : أى الثبات والجد . وهم على المشهور : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونوح ، وخاتم النبيين نبينا محمد عليهم الصلاة والسلام ، وقد نظم أسماءهم بعض الفضلاء بقوله :

محمد إبراهيم موسى كليمه   فعيسى فنوح أولو العزم فاعلم

قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ ذوو الحزم .

وقال الضحاك : ذوو الجد والصبر .

قال ابن زيد : كل الرسل كانوا أولى العزم لم يبعث الله نبياً إلا كان ذا عزم وحزم ، ورأى ، وكمال عقل و إنما دخلت من للتجنيس لا للتبعيض ثم بعد أولي العزم فالواجب اعتقاده أن يليهم فى الأفضلية سائر الرسل المكرمين بالرسالة ، ثم الأفضل بعد الرسل الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام ، وهم متفاوتون فى الفضيلة فبعضهم أفضل من بعض ، كما قال تعالى: ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ فهذا واجب الاعتقاد تفصيلا فيمن علم منهم وعلم حكمه تفصيلا و إجمالا فيمن علم منهم وعلم حكمه إجمالا ، ولهذا قال بالجزم السديد والقطع المفيد

للحكم المذكور وعلم من ذلك رد زعم من زعم أن الولي قد يبلغ درجة النبي كما يقوله بعض الجاهلين .

فصـــل

فيما يجب للأنبياء وما يجوز عليهم وما يستحيل فى حقهم

قد تقدم فى أول الباب شروط من يكرمه الله بالنبوة من الذكورة والحرية والقوة على أعباء ما حملوا وذكر هنا ما يمتنع فى حقهم وما يجوز قال :

وإن كل واحـــد منهم سلم   من كل ما نقص ومن كفر عصم
كذاك من إفك ومن خيانة   لوصفهم بالصدق والأمانة

قوله : وإن كل واحد منهم ـ أى من الأنبياء والرسل ـ سلم وتنزه من كل ما نقص يؤدى إلى إزالة الحشمة و إسقاط المروءة . وما : زائده للتأكيد . وإن كل واحد منهم من كفر بجميع أنواعه عصم : أى منع قبل النبوة و بعدها . كذاك : كل واحد من الأنبياء والرسل ، قد عصم من إفك أى: كذب وعصم من خيانة ، ولو قلت لوجوب وصفهم عليهم السلام بالصدق الذى هو ضد الكذب ، والأمانة التى هى ضد الخيانة ، والضدان لايجتمعان ، فالصدق واجب فى حقهم عقلا وشرعا وهو مطابقة أخبارهم للواقع .

وجائز فى حق كل الرسل   النوم والنكاح مثل الأكل

قوله : وجائز أى عقلا وشرعا فى حق كل الأنبياء والرسل عليهم السلام النوم : وهو رحمة من الله على عباده لتستريح أبدانهم عند تعبهم، وهو غشية ثقلية تقع على القلب تمنع معرفة الأشياء ، لكن نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كان تنام عينه ، ولا ينام قلبه . ومثل النوم مما هو جائز فى حق الأنبياء والمرسلين . الجلوس ، والمشى ، والبكاء ، والضحك ، والنكاح ، والتسرى ، وكل ماهو من خواص البشرية المباحة مثل الأكل والشرب للحلال .

فصــــــل

فى الصحابة الـكرام رضى الله عنهم

وليس فى الأمة بالتحقيق فى الفضل والمعروف كالصديق

قوله : وليس فى الأمة : أى المحمدية أمة الإسلام، بالتحقيق الثابت المنصوص فى الفضل بجميع أنواعه ، و بذل المعروف من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، كأبى بكر ، وكان اسمه فى الجاهلية عبد الـكعبة ، فسماه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله ولقّبه بالصديق .

قال ابن قتيبة : ولقبه النبى صلى الله عليه وسلم عتيقا لجمال وجهه ، فهو أبو بكر عبد الله بن عثمان يجتمع نسبه مع النبى عليه الصلاة والسلام فى مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، وهو أول من أسلم وآمن بالنبى صلى الله عليه وسلم على قول أكثر أهل العلم . ولهذا قال أبو محجن :

وسميت صديقا وكل مهاجر سواك يسمي باسمه غير منكر
سبقت إلى الإسلام والله شاهد وكنت جليسا فى العريش المشهر

وقيل: أول من آمن علىّ –رضي الله عنه– وقيل: خديجة ، و يروى عن الإمام أبى حنيفة أنه قال : الأورع أن يقال : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن الصبيان على ، ومن النساء خديجة ، ومن الموالى زيد، ومن العبيد بلال، وهذا من أحسن ما قيل لجمعه الأقوال وهو أفضل الصحابة بإجماع أهل السنة .

قال شيخ الإسلام فى الفتاوى المصرية : قد نقل عن على من نحو ثمانين وجها خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، وعمر . وهو أول من ولّى الخلافة بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومدة خلافته سنتان وأربعة أشهر إلا عشر ليال ، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وغسلته زوجته أسماء بنت عميش ، وصلى عليه الخليفة بعده بعهده عمر بن الخطاب ، وهو الذى يليه فى الفضيلة . فلهذا قال :

و بعده الفاروق من غير افترا   وبعـده عثمان فاترك المرا

قوله : و بعده . أى بعد أبى بكر الصديق الذى يليه فى الفضيلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . الفاروق: لقبه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، فهو عمر بن الخطاب القرشى العدوى ، وكنيته أبو حفص، كناه بذلك النبى صلى الله عليه وسلم . أسلم ــ رضى الله عنه ــ فى السنة السادسة من البعثة ، ففرح المسلمون بإسلامه ، وظهر الإسلام بعد ذلك بمكة . بويع ــ رضى الله عنه ــ بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه أبو بـكر الصديق ، وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة . فقام بالأمر أتم القيام ، وكثرت الفتوح فى أيامه ، فأزال دولة الروم من الشام ، وأسقط دولة الفرس المجوس من العراق وفارس حتى انقرضت ، فلذا طعنه مجوسى يقال له أبو لؤلؤة حنقا لمـا حل بقومه من الدمار والبوار ، وذلك يوم الأربعاء ؛ لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، ودفن يوم الأحد ، ولما طعن قال ــ رضى الله عنه ــ الحمد لله الذى جعل منيتى بيد رجل لا يدعى الإسلام ، فعمر ــ رضى الله عنه ــ أفضل هذه الأمة بعد أبى بكر الصديق . من غير افترا : أى كذب ، بل هو حق ثابت وصدق واضح ، و بعده : أى بعد أمير المؤمنين فى الفضيلة أمير المؤمنين عثمان بن عفان الأموى . أسلم قديما على يد أبى بكر ــ رضى الله عنهما ــ وهاجر الهجرتين إلى الحبشة ، وتزوج رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وماتت عنده ، فزوجه النبى صلى الله عليه وسلم أختها أم كلثوم ، وتوفيت عنـده أيضاً ، فلذا سمى ذا النورين . ولى الخلافة بعد عمر ــ رضى الله عنهما ــ باتفاق أهل الشورى من الصحابة ، واستشهد سنة خمس وثلاثين فى داره ، وذلك فى ذى الحجة ، وهو يومئذ صائم تجمعت عليه الأسافل والأنذال من العراق ، والشام ، ومصر ، ونهى ــ رضى الله عنه ــ عن قتالهم اتقاء لسفك الدماء واحتسابا ، فرضى الله عنه وأرضاه . وأخرج الحاكم عن الشعبى قال : ما سمعت من مراثى

عثمان أحسن من قول كعب بن مالك رضى الله عنه :

فكف يديه ثم أغلق بابه وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهل الدار لا تقتلوهم عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل

فكيف رأيت الله صب عليهم العداوة والبغضاء بعد التواصل

وكيف رأيت الخير أدبر بعده عن الناس أدبار الرياح الجوافل

فهو ــ رضى الله عنه ــ أفضل الأمة المحمدية بعد أبى بكر وعمر ، باتفاق أهل السنة . ولهذا قال : فاترك المرا فى الجدال والشك فى فضيلته ، فإن عليا ــ رضى الله عنه ــ من جملة من بايعه وقد غزا معه ، وكان يقيم الحد بين يديه .

وبعد فالفضل حقيقا فاسمع نظامى هـذا للبطين الأنزع

مجدل الأبطال ماضى العزم مفرج الأوجال وافى الحزم

وافي الندى مبدى الهدى مردى العدا

مجلى الصدى يا ويل من فيه اعتدى

قوله : و بعد ــ ببنائها على الضم لحذف المضاف إليه ونية ثبوت معناه ــ أى و بعد عثمان بن عفان فالفضل الشامخ حقيقا أى فى حقيقة الأمر من غير شك. فاسمع نظامى : أى منظومى هذا الذى أدرجته فى هذه العقيدة المفيدة ثابت للإمام الهمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب . البطين : أى عظيم البطن . الأنزع : أى المنحسر شعر رأسه مما فوق الجبين. مجدل الأبطال : قال فى القاموس: جدله فانجدل وتجدل صرعه على الجدالة ، كسحابة الأرض مطلقا ، أو ذات رمل دقيق . والأبطال: جمع بطل . الرجل الشجاع سمى بذلك ؛ لأنه تبطل عنده دماء القرآن ، أو لأنه يبطل جراحته فلا يكترث بها ، ولا شك أن عليا ــ رضى الله عنه ــ قتل من الأبطال عدة . وقوله : ماضى العزم . إشارة إلى شدة قوته ، ووفور شدته . والماضى : من

مضى فى الأمر مضاء نفذ ومضى السيف : أى قطع . والعزم : الجد والصبر . مفرج : أى كاشف الأوجال . جمع وجل: الخوف . وافى: أى تام . الحزم : الذى هو ضبط الأمور ، والحذر من فواتها . وافى: أى كثير الندى أى السخاء والكرم . مبدى : أى مظهر الهدى . مراده العلوم الغامضة والفهوم الرائضة . مردى : أى مهلك العدى جمع عد . وضد الولى ، وهو جمع لا نظير له . مجلى : أى مزيل . الصدى : أى العطش ، والمراد به كاشف الكرب ، ومجلى النوب . يا ويل : هذه الكلمة مثل ويح ، إلا أنها كلمة عذاب . وتنصب على إضمار الفعل ، وترفع على الابتداء إذا لم تضف ، فأما إذا أضيفت فليس إلا النصب ؛ لأنك لو رفعتها لم يكن لها خبر .

قال عطاء بن يسار : الويل : واد فى جهنم لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حره ، ومعنى النداء هنا : يا ويل احضر فهذا وقتك وأوانك . لمن : أى إنسان مكلف من ذكر وأنثى . فيه : أى فى أمير المؤمنين على بن أبى طالب . اعتدى : أى تجاوز حده بالغلو فيه كفعل الروافض ، أو بانتقاصه كما فعلت الخوارج ، فهو ـ رضى الله عنه ـ ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورابع الخلفاء ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وصهر النبى صلى الله عليه وسلم على فاطمة الزهراء ، وأحد السابقين إلى الإسلام .

قال ابن عباس وغيره : إنه أول من أسلم ، وقد تقدم ما يجمع الأقوال . بويع ـ رضى الله عنه ـ بالخلافة يوم قتل عثمان ، وقتله ابن ملجم الخارجى ليلة الأحد لتسع عشرة مضت من رمضان سنة أربعين ، وغسله الحسن والحسين ، وعبد الله ابن جعفر ، وصلى عليه الحسن ، ودفن بدار الإمارة بالكوفة . ومما نسب إلى الإمام على رضى الله عنه .

محمّد النبى أخى وصهرى   وحمزة سيد الشهداء عمى

وجعفر الذى يمسى ويضحى يطير مع الملائـكة ابن أمى
وبنت محمد سكني وعرسى مسوط لحمها بدمي ولحمى
وسبطا أحمد ابناى منها فأيـكم له سهم كسهمى .
سبقتكم إلى الإسلام طرا غلاماً ما بلغت أوان حلمى

فحبـه كحبهم حتما وجب ومن تعدى أو قلا فقد كذب

قوله : فحبه . أى حب أمير المؤمنين على بن أبى طالب . كحبهم : أى كحب الخلفاء الراشدين . حتما وجب على جميع الأمة باتفاق الأئمة ، ومن تعدى فى حبه ، وغلا فيه وجعل له تصرفا بالأحياء ينفعهم أو يضرهم ، أو لم يقل بفضل الخلفاء الراشدين على ترتيب الخلافة . أو قلاهم : أى أبغضهم ، أو أبغض واحدا منهم ، فقد كذب فى كل واحدة من هاتين الخصلتين المذمومتين . خصلتى الإفراط أى تجاوز الحد والتفريط أى التقصير فى حقهم و بغضهم ــ رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

و بعد فالأفضل باقى العشرة فأهل بدر ثم أهل الشجرة

قوله و بعد : أى بعد الخلفاء الراشدين، فالأفضل من سائر الصحابة باقى العشرة المشهود لهم بالجنة والمبشرين بها بما رواه الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف ، وابن ماجه عن سعيد بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وعلى فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة ، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة ، وسعيد بن زيد فى الجنة ، وأبو عبيدة فى الجنة » فهولاء هم العشرة المبشرون بالجنة ــ رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ــ ونذكر شيئاً من مآثر الستة الباقين من العشرة لمزيد الإيضاح والتبيين فنقول أحدهم :

أبو محمد طلحة بن عبيد الله القرشى اليتمى، أسلم قديما على يد أبى بكر الصديق، وشهد المشاهد كلها غير بدر ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم أنفذه مع سعيد بن زيد

يتعرفان خبر العير التى كانت لقريش مع أبى سفيان بن حرب ، ففادا يوم اللقاء ببدر ، وثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ووقاه بيده فشلت أصبعه ، وجرح يومئذ أربعة وعشرين جراحة ، وسماه النبى عليه السلام طلحة الخير ، قتل – رضى الله عنه – يوم وقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين . وثانيهم :

أبو عبد الله : الزبير بن العوام القرشى الأسدى ، وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلم قديماً على يد أبى بكر الصديق ، وهاجر الهجرتين ، وشهد المشاهد كلها وهو أول من سل السيف فى سبيل الله ، وثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد . قتل فى وقعة الجمل سنة ست وثلاثين . وثالثهم :

أبو إسحاق : سعد بن أبى وقاص واسم أبى وقاص مالك القرشى الزهرى ، أسلم قديما على يد أبى بكر . وقال : كنت ثالثاً فى الإسلام ، وأنا أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مات – رضى الله عنه – بالعقيق قريبا من المدينة ، فحمل على رقاب الرجال إلى المدينة ، وصلى عليه مروان بن الحكم ، وهو يومئذ والى المدينة من قبل معاوية ، ودفن بالبقيع ، وذلك سنة خمس وخمسين ، وقيل : سنة سبع وخمسين . ورابعهم :

أبو الأعور : سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، قال: ابن عبد البر هو : ابن عم عمر بن الخطاب ، أسلم قديماً وشهد المشاهد كلها غير بدر كما تقدم . مات بالعقيق فحمل إلى المدينة ، ودفن بها سنة إحدى وخمسين ، وقيل : سنة اثنتين وخمسين . وخامسهم – رضى الله عنهم أجمعين :

أبو محمد : عبد الرحمن بن عوف القرشى الزهرى ، أسلم قديماً على يد أبى بكر ، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وشهد المشاهد كلها وثبت مع النبى صلى الله عليه

وسلم يوم أحد ، وصلى رسول الله عليه السلام خلفه يوماً فى غزوة تبوك وأتم مافاته .
مات سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع . وسادسهم أمين الأمة :

أبو عبيدة : عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهرى ، أسلم مع عثمان بن مظعون ، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وشهد المشاهد كلها وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ، ونزع الحلقتين اللتين دخلتا فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد من حلق المغفر بغية فوقعت ثنيتاه ، فكان أحسن الناس همة . مات فى طاعون عمواس بالأردن سنة ثمانى عشرة ، ودفن هناك ــ رضى الله عنه .

ثم ذكر من يلى العشرة فى الفضيلة بقوله : فأهل غزوة بدر التى أعز الله بها الإسلام ، وأذل بها عبدة الأصنام . و بدر : قرية كانت مشهورة على نحو أربع مراحل من المدينة ، وكانت وقعة بدر نهار الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، وكان عدة المسلمين ثلاثمائة و بضعة عشر رجلا ، واستشهد من المسلمين فى وقعة بدر أربعة عشر رجلا: ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار ، وقتل من الكفار سبعون وأسر سبعون .

ثم بعد أهل بدر فالأفضلية ثابتة لأهل بيعة الرضوان تحت الشجرة المعهودة ، وهى من شجر الطلح ، وأهل بيعة الرضوان هم أصحاب الحديبية .

قال ياقوت : اختلفوا فيها . فمنهم من شددها ، ومنهم من خففها ، فروى عن الشافعى ــ رحمه الله ــ أنه قال : الصواب تشديد الحديبية ، وتخفيف الجعرانة ، وخطأ من نص على تخفيفها ، وهى قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها ، و بين الحديبية ومكة مرحلة ، و بينها و بين المدينة تسع مراحل . وفى الحديث أنها بئر ، و بعض الحديبية فى الحل ، و بعضها فى الحرم ، وهو أبعد الحل من البيت . انتهى ملخصاً . وسببها : أن قريشا لما منعت النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين من دخول

المسجد الحرام بعث عليه الصلاة والسلام عثمان بن عفان إلى قريش ليخبرهم أنهم لم يأتوا للقتال ، وإنما جاءوا عمارا ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ، ثم بلغه عليه السلام أن عثمان قتلته قريش ، فدعا الناس إلى البيعة ، وقال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » فبايعوه . وضرب عليه الصلاة والسلام بإحدى يديه على الأخرى عن عثمان ، وقال: « اللهم إن عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك » ثم تبين كذب الخبر بقتل عثمان ، فقدم على النبى صلى الله عليه وسلم هو ومن معه بعد البيعة وكانوا عشرة ، ثم كانت الهدنة بينه عليه الصلاة والسلام وبين قريش ، ووقع الصلح على أن يرجع ويعتمر من العام المقبل ، فرجع عليه السلام . وذلك سنة ست من الهجرة ، ثم اعتمر عمرة القضية ـ وتسمى عمرة القضاء ـ سنة سبع من الهجرة . والله أعلم .

وقيل أهل أُحد المقدمه والأول أولى للنصوص المحكمة

قوله : وقيل أهل غزوة جبل أحد ـ سمى بذلك لتوحده وانقطاعه عن جبال أخر هناك ـ وهو الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم : « أُحد جبل يحبنا ونحبه » وكانت هذه الوقعة يوم السبت فى شوال سنة ثلاث من الهجرة وسيما أنه لما قتل الله من قتل من الكفار يوم بدر ، ورجع من بقى منهم إلى مكة ، وجدوا العير التى قدم بها أبو سفيان من الشام سالمة موقوفة فى دار الندوة ، فمشت أشراف قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم إلى أبى سفيان . فقالوا : نحن طيبوا الأنفس بأن نجهز بربح هذه العير جيشاً إلى محمد . فقال أبو سفيان : أنا أول من أجاب إلى ذلك ، وبنو عبد المطلب معى ففعلوا ذلك ، وكانت العير ألف بعير والمال خمسين ألف دينار ، فسلم إلى أهل العير رؤوس أموالهم ، وعزلت الأرباح ، وكانوا يربحون فى تجارتهم الدينار ديناراً ، وجهزوا الجيش وفيهم نزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ

عَلَيهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وخرجت قريش ومن تابعها من القبائل فساروا حتى وصلوا إلى أحد، وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واقتتل الفريقان، فقتل من المسلمين سبعون رجلا ، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون رجلا ، وقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الكريمة أُبىّ بن خلف ، وانهزم المسلمون فى هذه الوقعة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض الصحابة فلم ينهزموا ، وسبب هذا الانكسار مخالفة أمر رسول الله عليه السلام ، وقد عفا الله عنهم بنص القرآن .

وإذا تدبرنا ما حل بالمسلمين فى هذه الأزمان من تغلب الكفار عليهم ، وجدنا ذلك بسبب مخالفته أمر الله ، فلا عز للمسلمين إلا بالتمسك بكتابهم ، وبما جاء به نبيهم من السنة الصحيحة ، ولنا فى قصة أُحد أعظم عبرة ، فأهل هذه الغزوة قيل : هم المقدمة فى الزمن والأفضلية والأول ، وهو تقديم أهل البيعة فى الأفضلية على أهل غزوة أحد أولى وأحق بذلك ؛ لورود النصوص المحكمة من الكتاب والسنة ، فقد رضى الله عنهم كما فى قوله تعالى : ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ورضوان من الله أكبر﴾ .

وروى الترمذى وغيره عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر » ومن ثم قال ابن عبد البر : ليس فى غزواته صلى الله عليه وسلم ما يعدل بدراً أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية . وصاحب الجمل الأحمر رجل أضل بعيراً له فدخل فى العسكر يتطلبه –ولم يكن من المسلمين– فبلغه ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له: اذهب يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: لإن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى، فبينما هو سائر إذ زلقت به نعله فتردى فمات، فما علم به حتى أكلته السباع ، والرجل من بنى ضبة من أهل سيف البحر .

وعائشة فى العلم مع خديجة فى السبق فافهم نكتة النتيجة

قوله : وعائشة . أى الصديقة بنت الصديق ـ رضى الله عنهما ـ أم المؤمنين عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بنت ست سنين قبل الهجرة ، ودخل بها بالمدينة فى السنة الأولى وهى بنت تسع سنين، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة ، وتوفيت بالمدينة سنة ثمان وخمسين . وأوصت أن يصلى عليها أبو هريرة ، ودفنت بالبقيع ـ رضى الله عنها ـ فهى أفضل نسائه صلى الله عليه وسلم فى العلم النافع حتى كان الأكابر من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام إذا أشكل عليهم أمر من الدين استفتوها فيجدون علم ذلك عندها ، وقد اختلف العلماء فى المفاضلة بين عائشة وخديجة .

قال ابن القيم : وسألت شيخنا عنهما فقال: اختص كل واحدة منهما بخاصة . فلهذا قال مع خديجة بنت خويلد الأسدية أم المؤمنين ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وهى أول أزواجه وبقيت معه إلى أن أكرمه الله بالرسالة ، فآمنت به ونصرته ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين ، ولم يتزوج عليها غيرها ، وكل أولاده منها إلا إبراهيم فمن سريته مارية القبطية ، فخديجة أفضل نسائه عليه الصلاة والسلام فى السبق إلى الإسلام . فافهم : فهم تحقيق . نكتة النتيجة : أى أثر فائدة الخلاف ، فإن النكتة أثر قليل كالنقطة ، والنتيجة عند المناطقة تصديق يلزم من تسليم تصديقين لذاتهما ، كقولنا فى القياس الاقترانى من الشكل الأول : كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف حادث ينتج كل جسم حادث ، وقولهم لذاتهما يخرج به التصديق اللازم من تسليم تصديقين لا لذاتهما بل لأمر خارج ، كقولهم : زيد مساو لعمرو ، وعمرو مساو لبكر ينتج زيد مساو لبكر ، فليس هذا قياسا اصطلاحا ، لعدم تكرر الحد الوسط ، وعند المتكلمين ما يحصل العلم به عقب العلم بوجه الدليل ، وقد اختلف علماء المعقول

فى الارتباط بين الدليل والنتيجة على أقوال أشار إليها صاحب السلم بقوله :

وفي دلالة المقـدمـات على النتيجة خلاف آت

عقـلى واوعادى أو تولد أو واجب والأول المؤيد

والمراد بها هنا : الحكم المتولد من القضيتين بالتفضيل فى التفصيل .

فصـــــل

فى ذكر الصحابة الكرام و بيان مزاياهم على غيرهم والتعريف بما يجب لهم من المحبة والتبجيل وتقبيح من آذاهم

وليس في الأمة كالصحابة فى الفضل والمعروف والإصابة

قوله وليس فى الأمة : أى المحمدية المفضلة على سائر الأمم بالدلائل القطعية ، كما فى قوله تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ كالصحابه الكرام فى الفضل يشاهد قوله عليه الصلاة والسلام : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » أخرجه الشيخان عن عمران بن حصين ، وقال عمران : فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة . ورواه أبو داود ، ولفظه : «خير أمتى القرن الذى بعث فيهم ، ثم الذين يلونهم » والمعروف : أى وليس فى الأمة كالصحابة فى المعروف الذى هو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله تعالى والتقرب إليه والإحسان إلى الناس ، وكلما ندب إليه الشرع ، ونهى عنه فهم أحق بالفضل والمعروف ، والإصابة للحكم المشروع وبموافقة الكتاب والسنة من جميع الأمة .

قال عبد الله بن مسعود : من كان مستنا فليستن بمن قد مات ، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ،

فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وبسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . قال في المشكوة رواه زين ، ورواه الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى .

فإنهم قد شاهدوا المختارا وعاينوا الأَسرار والأنوارا

وجاهدوا في الله حتى بانا دين الهدى وقد سما الأديانا

قوله : فانهم . أى الصحابة الكرام قد شاهدوا وصحبوا النبي المختار من سائر الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعاينوا : أى رأوا في صحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم الأسرار القرآنية ، وعلموا التنزيل وأسبابه ، والتأويل وآدابه ، وعاينوا الأنوار المشرقة من سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وجاهدوا في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا . حتى بانا ـ بألف الإطلاق ـ أى ظهر دين الهدى الذى هو دين الإسلام الذى به الهدى ، والدلالة الموصلة ، والفوز والفلاح . وقد سما : أى علا دين الإسلام ولله الحمد . الأديانا : التي كانت قبله ، فسائر الأديان غير دين الإسلام منسوخة ، وكل عبادة لم يأت بها فهي باطلة ممسوخة . قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا ، فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ، ويرحم الله القائل :

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا

طلعت به شمس الهداية للورى وأبى لها وصف الكمال أفولا

والحق أبلج في شريعته التي جمعت فروعا للهدى وأصولا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده

طلع الصباح فاطفأ القنديلا

درست معالمها ألا فاستخبروا عنها رسوما قد عفت وطلولا

وقد أتى فى محكم التنزيل　　فى فضلهم ما يشفى للغليل

وفى الأحاديث وفى الآثار　　وفى كلام القوم والأَشعار

ما قد ربا من أن يحيط نظمى　　عن بعضه فاقنع وخذ عن علم

قوله : وقد أتى فى محكم التنزيل من الكتاب العظيم ، والذكر الحكيم . من فضلهم : أى الصحابة الكرام . ما : أى الذى يشفى ـ أى يبرىء ـ للغليل ـ بالغين المعجمة ـ العطش . والمراد : ما يطفىء حرارة الجهل بمقاماتهم العالية ، كقوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، وقد أتى أيضاً فى الأحاديث النبوية ، كقوله عليه الصلاة والسلام : « خير أمتى قرنى » الحديث ـ وفى الآثار السلفية الواردة عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم ، وقد أتى فى كلام القوم من المحدثين والفقهاء والصوفية ، وسائر أرباب المعارف . وفى الأشعار المرضية . ما : أى شىء . قد ربا : أى زاد وعلا من أن يحيط نظمى فى هذه الأرجوزة ، ويضيق عن بعضه فضلا عن غالبه وكله . فاقنع : من القنوع ، وهو الرضا باليسير . وخذ ذلك فإنه عن علم ويقين لا عن ظن وتخمين .

واحذر من الخوض الذى قد يزرى

بفضلهم مما جرى لو تدرى

فإنه عن اجتهاد قد صدر　　فاسلم أذل الله من لهم هجر

قوله : واحذر . أمر من الحذر الذى هو التحرز والتيقظ . أى احذر حذر إذعان مع سلامة صدر من الخوض المفضى إلى التوسع فى البحث والتنقيب الذى قد يزرى مضارع : أزرى . قال فى القاموس : زرى عليه . عابه وعاتبه كأزرى لكنه قليل .

وقال أبو عمر : والزارى على الإنسان الذى لا يعده شيئاً ، وينكر عليه فعله ، والإزراء : التهاون بالشيء . يقال : أزرى به إذا قصر به . وازدراه : أى حقره . قاله فى المختار . فقول الناظم : يزرى : أى يحط قدرهم ، وينقص بفضلهم : أى من فضلهم المعلوم من الـكتاب والسنة . مما : أى من الاختلاف الذى جرى بينهم لو كنت تدرى عاقبة الخواص ، وما يفضى إليه لما خضت فيه ، وسكت عنه فإنه : أى ماوقع بينهم من التخاصم عن اجتهاد قد صدر منهم ــ رضى الله عنهم ــ فاسلم من الخوض فى تلك البحور المهلـكة ، واقطع لسانك عن ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحيط من رتبتهم العالية ، ومقاماتهم الرفيعة. أذل الله تعالى من : أى كل مبتدع من الروافض ، ومن وافقهم لهم : أى للصحابة الـكرام هجر وعادى ولم يوال ويحب .

وقد أخرج الترمذى : من حديث عبدالله بن مغفل ــ رضى الله عنه ــ مرفوعا: « الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضاً من بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى بغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » والذى أجمع عليه أهل السنة والجماعة أنه يجب على كل أحد تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم ، والـكف عن الطعن فيهم .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى آخر كتابه [الصارم المسلول] فصلا فى تفصيل القول فيمن سب الصحابة . فقال: أما من اقترن بسبه دعوى أن عليا إله ، وأنه كان هو النبى ، وإنما غلط جبريل فى الرسالة ، فهذا لا شك فى كفره ، بل لا شك فى كفر من توقف فى كفره ، وكذا من زعم منهم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت ، أو زعم أن له تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة ونحو ذلك ، وهؤلاء يسمون القرامطة والباطنية . وأما من سبهم سباً لا يقدح فى

عدالتهم ولا فى دينهم ، مثل وصف بعضهم بالبخل ، أو الجبن أو قلة العلم ، أو عدم الزهد ونحو ذلك ، فهذا هو الذى يستحق التأديب والتعزير ، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك ، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من العلماء ، وأما من لعن وقبح مطلقا ، فهذا محل الخلاف فيهم لتردد الأمرين : لعن الغيظ ، ولعن الاعتقاد ، وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا نفراً قليلا لا يبلغون بضعة عشر نفساً ، أو أنهم فسقوا عامتهم . فهذا لا ريب أيضاً فى كفره ؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن فى غير موضع من الرضى عنهم والثناء عليهم ، بل من يشك فى كفر مثل هذا ، فإن كفره متعين ، فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفاراً وفساقا ، وأن هذه الآية التى هى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ وخيرها : هو القرن الأول . كان عامتهم كفاراً أو فساقا ، ومضمونها : أن هذه الأمة شر الأمم ، وأن سابقى هذه الأمة شرارها ، وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام . قال : وبالجملة فمن أصناف السابة من لا ريب فى كفره ، ومنهم من لا يحكم بكفره ، ومنهم من تردد فيه . وقد تقدم التفصيل .

فصل

فى ذكر كرامات الأولياء وإثباتها

وكل خارق أتي عن صالح ... من تابع لشرعنا وناصح

فإنها من الكرامات التى ... بها نقول فاقف للأدلة

ومن نفاها من ذوى الضلال ... فقد أتى فى ذاك بالمحال

لأنها شهيرة ولم تزل ... فى كل عصر يا شقا أهل الزلل

قوله : وكل خارق . أى للعادة من الخوارق ، ومراده الكرامة وهى أمر

خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ، ولا هو مقدمة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي تكلف شريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح ، علم بها ذلك العبد الصالح أم لم يعلم بها ، ولا تدل على صدق من ظهرت على يديه ، ولا على ولايته لجواز سلبها ، وأن تكون استدراجا ومكراً . وبهذا يتبين أن من ظهر على يديه شيء من الخوارق التي يسمونها كرامات الأولياء ، وهو مصر على دعوة غير الله تعالى من الأحياء والأموات ، معتقدا أنهم ينفعونه أو يضرون ، فهو من الحيل والشعوذة لا من الكرامات ، إذ من شروط حصولها صحة الاعتقاد ، وأي اعتقاد أفسد من الإشراك بالله تعالى ؟ وكذا يتبين كذب من ادعى الولاية ، وهو تارك للصلوات مع المسلمين في مساجدهم ، ويزعم أنه يصلي بمكة جميع الصلوات ، ولو كان بينه وبينها مسافة أيام . ويشد على ذلك :

وفي طندتا قالوا صلاتي تركتها ... ولم يعلموا أني أصلي بمكة

أصلي صلاة الخمس في البيت دائما ... مع السادة الأقطاب أهل الطريقة

وكذلك من سالم الحيات وسالمنه فأمسكهن ، فإن ذلك ليس من الكرامات في شيء ؛ لأنه معصية لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهن ، كما في سنن أبي داود عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتلوا الحيات كلهن ، فمن خاف ثأرهن فليس منا » وفيها أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماسالمناهن منذ حاربناهن ، ومن ترك شيئاً منهن خيفة فليس منا » فانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام ماسالمناهن ، وهؤلاء الجهال سالموهن ، وادّعوا أن ذلك كرامة وولاية . قال أهل الحق : والولي يكتمها ـ أي الولاية ـ ويسترها غالباً ، ويسرها ولا يساكنها . وهذا دليل على كذب المشعوذين الدجالين الذين جعلوا الكرامات سلاحاً يحاربون به ضعاف العقول من العوام بالترغيب والترهيب ، وهم بذلك أكذب من مسيلمة وسجاح . وقد نقل عن بعض

الدجالين أنه قال ــ قاتله الله إن صح عنه ــ إن الله أعطانى أن أقول للشىء كن فيكون . فهذا المخدوع ادعى الإلهية من حيث لا يشعر ﴿ كَبُرَتْ كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ فالحاصل : أن الكرامة لا بد أن تكون أمراً خارقاً للعادة ، أتى ذلك الخارق عن امرئ صالح والولى العارف بالله وصفاته حسب ما يمكن المواظب على الطاعة ، التارك للمعاصى ،المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات ، من ذكر وأنثى ، تابع لشرعنا معشر المسلمين لنسخ ما سواه من الشرائع به ، وناصح الله والكتاب ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فإن الدين النصيحة ، فإذا صدرت الخوارق عن أحد ممن اتصف بهذه الصفات ، فإنها تكون من الكرامات التى بها : أى بجوازها ووقوعها نقول ، كما هو مذهب أهل السنة .

قال ابن حمدان : وكرامات الأولياء حق. وأنكر الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ على من أنكرها وضلله . فاقف فى اعتقادك : أى اتبع للأدلة الشرعية الدالة على كرامات الأولياء ، كقصة مريم وآصف ، وأصحاب الكهف ، ومن أى : أى إنسان نفاها ــ أى كرامات الأولياء ــ فلم يقل بها. من ذوى : أى أصحاب الضلال والانحراف عن منهج أهل السنة إلى سلوك طريق الاعتزال ، وكذا من نحا نحوهم من الأشاعرة، كأستاذ أبى إسحاق الاسفراينى وعبد الله الحليمى ، فقد أتى فى ذاك النفى بالمحال : أى الباطل المنابذ للبرهان ، فإنها ثابتة بالكتاب والسنة واتفاق أهل السنة ؛ لأنها ــ أى كرامات الأولياء ــ شهيرة للعيان ثابتة بالبرهان ، ولم تزل تظهر فى كل عصر من الأعصار الماضية وإلى الآن . ياشقا : هو ضد السعادة . أى هذا أوانك احضر لأهل الزلل والزيغ عن الصراط المستقيم لابتداعهم فى الدين ، ومخالفتهم مااتفق عليه جميع المؤمنين، فخالفوا المحسوس وأنكروا المنصوص، ثم إنه يجب على طالب الإنصاف مراعاة الشروط التى صرح بها العلماء فيمن يعتبر صدور الخوارق على يديه كرامات لئلا يغتر بالدجاجلة والمشعوذين ، وبما يلقونه

على العوام الطغام من الخوارق التى خرقت الدين ، وجعلتهم يعتقدون أن غير الله يملك نفعاً وضراً . نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

فصـــــل

فى المفاضلة بين البشر والملائـكة

وعندنا تفضيل أعيان البشر على ملاك ربنا كما اشتهر
قال ومن قال سوى هذا افترا وقد تعدى فى المقال واجترى

قوله : وعندنا ـ أى معشر أهل السنة ـ تفضيل أعيان البشر محركة الإنسان ذكراً أو أنثى ، والمراد بأعيانهم : الأنبياء والأولياء . فالأنبياء أفضل من الأولياء ، وهما أفضل من الملائـكة .

قال الإمام أحمد : بنو آدم أفضل من الملائـكة ، ولذا قال على ملاك ربنا تبارك وتعالى كما اشتهر ذلك من نصوص الإمام أحمد ، والملاك : هو المَلَك وجمعه ملائـكة .

قال الفيومى فى المصباح : مشتقة من لفظ الألوك . يعنى : مصدر ألك من باب ضرب ألـكا وألوكا أيضاً ترسل واسم الرسالة مالك ـ بضم اللام ـ ومالـكة أيضاً بالهاء ولامها ـ تضم وتفتح ـ قال عدى بن زيد التميمى ، وقد جسه النعمان ابن المنذر :

أبلغ النعمان عنى مالـكا أننى قد طال حسبى وانتظارى

قال فى المصباح : وقيل من المالك الواحد مالك وأصله ملاك ووزنه مَعْفَلٌ فنقلت حركة الهمزة إلى اللام ، وسقطت فوزنه مَعَلْ فإن الفاء هى الهمزة ، وقد سقطت . وقيل : مأخوذ من لاك إذ أرسل فملاك مفعل فنقلت الحركة وسقطت

الهمزة وهى عين، فوزنه مَفَلٌ . وقيل : غير ذلك . وقال فى القاموس : وزنه يعنى الملك مفعل والعين محذوفة أُلْزِمَتْ التخفيف الا شاذا .

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ومن أى : أَىُّ إنسان قال بلسانه ، أو اعتقد بجنانه سوى : أى غير هذا القول الذى هو تفضيل بنى آدم على الملائكة . فقد افترى : أى كذب . وقد تعدى : أى تجاوز الحد المنقول الثابت عن الرسول ، وخالف السلف فى المقال الذى اعتمده. واجترى : أى افتات على الشارع بالاعتقاد الذى اعتقده ، ولفظ النص يخطىء من فضل الملائكة .

قال الإمام العلامة أبو بكر عبد العزيز : من كان خيره أكثر من شره ، فهو خير من الملائكة ، ومن كان شره أكثر من خيره ، فالبهائم خير منه .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ صالح البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، والملائكة أفضل باعتبار البداية ، فإن الملائكة الآن فى الرفيق الأعلا . منزهون عما يلابسه بنو آدم مستغرقون فى عبادة الرب ، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة ، فتصير حال صالحى البشر أكمل من حال الملائكة . وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل . انتهى ملخصاً .

الباب السادس

فى ذكر الإمامة ومتعلقاتها

ولا غنًى لأمة الإسلام   فى كل عصر كان عن إمام

يذب عنها كل ذى جحود   ويعتنى بالغزو والحدود

وفعل معروف وترك نكر   ونصر مظلوم وقمع كفر

وأخذ مال الفىء والخراج   ونحوه والصرف فى منهاج

قوله : ولا غنى . أى لا بد لأمة دين الإسلام ـ وهى بالضم ـ الجماعة أرسل إليهم رسول والجيل من كل حي، ومن هو على الحق مخالف لسائر الأديان، والرجل الجامع للخير ، وفى نسخة لملة بدل أمة ـ وهى بكسر الميم ـ الشريعة أو الدين فى كل عصر من الأعصار كان : أى وجد. عن إمام: متعلق بقوله : لاغنى بل هو فرض لازم وواجب عند أهل السنة ، وأكثر المعتزلة . بالسمع : يعنى : التواتر والإجماع ، وعند المعتزلة بالعقل يذب ذلك الإمام : أى يدفع عنها ـ أى عن أمة الإسلام ـ كل ملك جبار ، وظلوم كفار. ذى : أى صاحب . جحود : أى إنكار. والمراد هنا : الجاحد للدين . ويعتنى الإمام : أى يتم بالغزو . أى غزو الكفار ، وقهر البغاة ، ويعتنى بإقامة الحدود جمع حد . وهو لغة : المنع، وحدود الله محارمه . وشرعا: العقوبات المقدرة. سميت بذلك؛ لأنها تمنع من الوقوع فى مثل الذنب الذى رتبت تلك العقوبة عليه ، أو لكونها زواجر عن المحارم التى حرمها الله ، فيقيم الحدود لتصان محارم الله ، وتحفظ حقوق العباد ، ويعتنى أيضاً بالأمر بفعل معروف، وهو اسم جامع لكل ماعرف من طاعة الله ، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس وترك نكر : أى ويعتنى أيضاً بالنهى عن كل منكر وهو ضد المعروف ، فكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه ، فهو منكر ، ويعتنى ينصر مظلوم من ظالمه . وقمع أهل كفر : أى قهرهم وذلهم ؛ لأن ذلك من أجل المقاصد الشرعية عكس ما عليه أمراء المسلمين فى هذا الزمان من إعزاز الكفار وإذلال المسلمين ، حتى أن منهم من حارب أهل الإسلام مع الكفار، لنيل الشهوات الحيوانية ، والمطالب الدنيوية الفانية، ولم يمعنوا النظر بما جنوا على الإسلام والمسلمين وليست أعم أمراء المسلمين بل غالبهم .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

ويعتنى أيضاً بأخذ مال الفيء ، وهو ما أخذ من مال كافر بسبب الكفر

بلا قتال . كالجزية والخراج ، وعشر مال تجارة حربى ، ونصفه من ذمى . ونحوه : أى نحو ماذكر كمال من مات من الكفار ولا وارث له ، ومال المرتد إذا مات على ردته بقتل أو غيره ، أو لحق بدار الحرب ، ويعتنى بالصرف لذلك المال . فى منهاج : أى طريق وجهة مصرفه المعينة له شرعاً ، فيصرف فى مصالح أهل الإسلام ، وهذا فى الأزمان الماضية . وأما فى هذه الأزمان الأخيرة ، فقد استأثر بأموال المسلمين عامة ، وفقرائهم خاصة أولو الأمر منهم ، فكأنهم ورثوها من آبائهم إرثاً ، ولم يعلموا أنهم يأكلونها سحتا إلا من شاء الله وقليل ماهم .

ونصبه بالنص والإجماع وقهره فحُل عن الخداع

قوله : ونصبه : أى يثبت نصب الإمام الأعظم بالنص من الإمام الذى قبله ، كما عهد أبو بكر الصديق بالخلافة إلى عمر — رضى الله عنهما — والإجماع : أى ويثبت نصبه أيضاً بالإجماع من أهل الحل والعقد من المسلمين ، كإمامة أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — وقهره : أى ويثبت نصبه بقهره الناس بسيفه حتى يذعنوا له ويدعوه إماما فتثبت له الإمامة ، كإمامة عبد الملك بن مروان حيث خرج على ابن الزبير فقتله ، واستولى على البلاد وأهلها حتى بايعوه طوعا وكرها ودعوه إماماً ، ولما فى الخروج عليه من شق عصا المسلمين ، وإراقة دمائهم وذهاب أموالهم. فحُل: أمر إرشاد . أى ابعد وزل عن الخداع : مصدر خادع متعلق بحل. يقال: خدعه كمنعه خدعا . أراد به المكروه من حيث لا يعلم — يعنى: اترك مُخادعة أهل البدع ، وتحسينهم الخروج على الأئمة ، وزعمهم عدم وجوب نصب الإمام ، فإن فى نصبه من المنافع مالا يحصى ، وفى الخروج عليهم مخالفة لما أمر به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة ، وشق لعصا المسلمين ، وتفريق لكلمة المؤمنين . فلو وفق الله أمراء المسلمين للصواب، واجتمعوا على إمام واحد ، لارتفع شأنهم وقوى سلطانهم ، ولم تتغلب عليهم دول الكفر . ولكن الأمر كما قيل :

فتفرقوا شيعاً فكل جزيرة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

نسأل الله تعالى أن يصلح ذات بينهم ، ويجمع كلمتهم، إنه على كل شىء قدير سبحانه وتعالى .

وشرطه الإسلام والحرية   عدالة سمع مع الدريّه
وأن يكون من قريش عالما   مكلفا ذا خبرة وحاكما

قوله : وشرطه . أى يشترط فى الإمام الأعظم الإسلام؛ لأن غير المسلم لا يكون له على المسلمين سبيل . والحرية : لأن الرقيق عليه الولاية لسيده ، فلا يكون والياً على غيره فضلا عن عامة المسلمين وخاصتهم .

وأما حديث أنس الذى فى البخارى : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشى » كان رأسه زبيبة ، وما فى معناه فمحمول على نحو أمير سرية يكون من جهة إمام قريش ، ويشهد لذلك مارواه الحاكم من حديث على مرفوعاً : « وإن أمرت قريش فيكم عبداً حبشياً مجدعا فاسمعوا له وأطيعوا » .

قال ابن رجب : إسناده جيد ، ولكنه روى عن على موقوفا .

وقال الدارقطنى : هو أشبه . وقد قيل : إن العبد الحبشى إنما ذكره على وجه ضرب المثل ، وإن لم يصح وقوعه ، كما قال صلى الله عليه وسلم فيمن بنى مسجداً ، ولو كمفحص قطاة . وقيل : هو مما أطلع الله عليه النبى صلى الله عليه وسلم من أمر أمته ، وولايته العبيد عليهم . ويشرط فيه أيضاً : عدالة لاشتراط ذلك فى ولاية القضاء ، وهى دون الإمامة العظمى ، وإن قهر الناس غير عدل ؛ فهو إمام كما نص على مثله الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ ويعتبر فيه أيضاً . سمع : أى أن يكون سميعا بصيرا ناطقا ؛ لأن المتصف بغير هذه الصفات لا يصلح لسياسة الخلق . مع الدرية : من الدراية ، وهى العلم والخبرة . والمراد : أن يكون عالماً بالأحكام المتعلقة بالسياسة والحروب ، ذا بصيرة قد علم بأحوال الناس ، ويعتبر أيضاً أن

يكون من قريش ، وهو من كان من نسل فهر ـ بكسر الفاء ـ بن مالك بن نضر ، و إنما اعتبر كونه قرشياً للأحاديث الواردة فى ذلك . منها ما رواه الإمام أحمد من حديث أبى برزة « الأئمة من قريش » .

وروى الإمام أحمد وغيره من حديث على أنه قال صلى الله عليه وسلم : «الخلافة فى قريش» و يعتبر أن يكون عالماً بالأحكام الشرعية لاحتياجه إلى مراعاتها فى أمره ونهيه. مكلفاً :أى بالغاً ؛ لأن غير المكلف يحتاج لمن يلى أمره ، فلا يكون والياً على أمر المسلمين. أن يكون حاكماً : أى قادر على إيصال الحق إلى مستحقه وكف ظلم المتعدى ، وقادراً على إقامة الحدود على وجه الشرع ، حاكماً بحكم الله ورسوله لا بهوى نفسه وشيطانه ، ولا تأخذه رأفة فى إقامة الحدود ، والذب عن الأمة . فإن عقدت لأكثر من واحد فهى للأول ، فإن فسق الإمام بعد العدالة لم ينعزل على الأصح الأشهر .

وكن مطيعاً أمره فيما أمر ما لم يكن بمنكر فيحتذر

قوله : وكن مطيعا ـ يعنى : إذا عقدت له الإمامة فصار إماما للمسلمين ، فكن سامعاً مطيعاً أنت وسائر الرعية . أمره فيما : أى فى الشىء الذى أمر به إن كان طاعة ، والحاصل أن طاعته تجب فى الطاعة ، وتسن فى المسنون ، وتكره فى المكروه . فإذا أمر بمعروف وجب امتثال أمره مالم يكن أمره بشىء منكر ، وهو ضد المعروف ، فلا يطاع فى ذلك ، بل يحتذر و يجتنب فلا تجب طاعته فى المعصية بل تحرم ، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

قال شيخ الإسلام : ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال : « إن الله يرضى ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تنصحوا من ولاه الله أمركم » قال : وآية الأمراء فى كتاب الله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ـ إلى قوله تعالى ـ ذلك

خير وأحسن تأويلا ﴾ . قال : نزلت الآية الأولى فى ولاة الأمور عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل . ونزلت الآية الثانية فى الرعية من الجيوش وغيرهم أن يطيعوا أولى الأمر الفاعلين لذلك فى قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك ، إلا أن يأمروا بمعصية الله تعالى . فإذا أمروا بمعصية الله تعالى ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فإن تنازعوا فى شىء ردوه إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وإن لم يفعل ولاة الأمور ذلك . أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ؛ لأن ذلك من طاعة الله ورسوله ، وأديت حقوقهم إليهم ، كما أمر الله ورسوله ، وأعينوا على البر والتقوى ، ولا يعاونون على الإثم والعدوان . فعلى ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال للمسلمين أصلح من يجده لذلك العمل . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد أصلح المسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » رواه الحاكم فى صحيحه .

فصل

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

واعلم بأن الأمر والنهى معاً   فرضا كفاية على من قد وعا

وإن يكن ذا واحدا تعينا   عليه لكن شرطه أن يأمنا

فاصبر وزل باليد واللسان   لمنكر واحذر من النقصان

قوله : واعلم . أى أيها الطالب للعلم بأن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر معا : أى كل واحد منهما منفرداً ، وكلاهما فرضا كفاية على جماعة المسلمين يخاطب به الجميع ، ويسقط بمن يقوم به بخلاف فرض العين ، فإنه يجب على كل واحد ، ولا يسقط عنه بفعل غيره . على من : أى إنسان . قد وعا : حكم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وحفظه وذلك ؛ لأن صلاح المعاش والمعاد إنما هو بطاعة الله

ورسوله ، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر حتى ولو كان مرتكب المنكر غير مكلف ، فإنه ينكر عليه تعليما له. وتأديبا إلى هذا أشار العلامة ابن عبد القوى بقوله :

وأنكر على الصبيان كل محرم   لتأديبهم والعلم فى الشرع بالردى

ومما فضلت به هذه الأمة على سائر الأمم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ والآيات فى ذلك كثيرة .

قال العلامة ابن رجب فى جامع العلوم : والحكم قوله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا » ، يدل على أن الإنكار متعلق بالرؤية ، فإن كان مستورا ولم يره ولكن علم به ، فالمنصوص عن أحمد فى أكثر الروايات أنه لا يتعرض له ، ولا يفتش على ما استراب به . وعنه رواية أخرى : أنه يكشف المغطى إذا تحققه .

قال الإمام أحمد : وأما تسور الجدران على من علم اجتماعهم على منكر ، فقد أنكره الأئمة مثل : سفيان الثورى وغيره ، وهو داخل فى التجسس المنهى عنه . وقد قيل لابن مسعود : إن فلاناً تقطر لحيته خمراً . فقال : نهانا الله عن التجسس .

وقال القاضى أبو يعلى : إن كان فى المنكر الذى غلب على ظنه الاستسرار به بأخبار ثقة عنه انتهاك حرمة يفوت استدراكها ، كالزنا والقتل فله التجسس ، والإقدام على الكشف والبحث حذراً من فوات مالا يستدرك من انتهاك المحارم ، وإن كان دون ذلك فى الرتبة لم يجز التجسس عليه ولا الكشف عنه .

قال ابن رجب : والمنكر الذى يجب إنكاره ما كان مجمعا عليه . فأما المختلف فيه فمن أصحابنا من قال : لا يجب إنكاره على من فعله مجتهداً أو مقلداً لمجتهد تقليداً سائغا ، واستثنى القاضى ما ضعف فيه الخلاف فينكر على فاعله .

وقد نص الإمام أحمد على الإنكار على من لا يتم ركوعه ، وسجوده ، ولا يقيم صلبه من الركوع مع وجود الاختلاف فى وجوب ذلك لضعف الخلاف فيه وأن يكون ذا : أى الذى علم بالمنكر واحداً عارفا بما ينكر . تعينا : أى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وصارا فَرْضَى عين عليه ، وكذا لو كانوا جماعة ، ولا يحصل المقصود إلا بهم. لكن شرطه : أى شرط افتراضه على الواحد أو الجماعة سواء كان فرض عين أو كفاية . أن يأمنا ـ بألف الإطلاق ـ على نفسه ، أو ماله ولم يخف أذى أو فتنة تزيد على المنكر . وقيل : إن زادت وجب الكف ، وإن تساويا سقط الإنكار ، والإنكار الذى يسقط عند الخوف هو الإنكار باليد واللسان . وأما الإنكار بالقلب فهو فرض عين لا يسقط بحال . ولما سمع ابن مسعود رجلا يقول : هلك من لم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر . قال : هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر ، يشير إلى أن معرفة المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد ، فمن لم يعرفه هلك . فاصبر على الأذى ممن تأمره وتنهاه ، ولا تغضب لنفسك بل لله .

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يأمر بالرفق والخضوع ، فإن أسمعوه ما يكره ، لا يغضب فيكون يريد أن ينتصر لنفسه ، وزل المنكر عن مكانه باليد ، وهو أعلى درجات الإنكار ، وذلك كإراقة الخمر ، وكسر أوانى الذهب والفضة ، واللسان : أى وزل المنكر باللسان حيث لم تستطع تغييره باليد بأن تعظه وتذكره بالله ، وأليم عقابه ، وتوبخه وتعنفه مع لين وإغلاظ بحسب ما يقتضيه الحال لمنكر متعلق بزل . واحذر من النزول عن أعلا المراتب حيث قدرت على أن تغير المنكر بيدك إلى أوسطها ، وهو الإنكار باللسان إلا مع العجز عن ذلك ، ولا يسوغ العدول عن الإنكار باللسان مع القدرة عليه إلى الإنكار بالقلب الذى هو أضعف الإيمان . فلذا حذر الناظم من النقصان ، وأشار بذلك

إلى ما رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » وهذا يدل كما قال العلامة ابن رجب : على أن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر من خصال الإيمان ، و يدل على أن من قدر على خصلة من خصال الإيمان وفعلها ، كان أفضل ممن تركها عجزا .

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ الناس يحتاجون إلى مداراة ، ورفق الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجل معلن بالفسق فلا حرمة له .

وقال سفيان الثورى : ـ رحمه الله ـ لا يأمر بالمعروف ، و ينهى عن المنكر إلا من كانت فيه خصال ثلاث : رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى ، عدل بما يأمر عدل بما ينهى ، عالم بما يأمر عالم بما ينهى .

قلت : فليتأمل كلام الإمام سفيان ، فإنه منطبق على القواعد الشرعية تمام الانطباق ، ومنه يعلم خطأ كثير من الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، فمنهم من يأمر و ينهى لهواه ، فمن وافقه فهو المحق ، ومن خالفه فهو المبطل . ومنهم جهال أغبياء سمعوا بعض الأحاديث ولم يفهموا معانيها ، فسطوا على الناس بالتضليل والتفسيق ، فأمروا ونهوا باعتبار أفهامهم الفاسدة . والغالب فى هذا القسم أن بعضهم يقلد بعضاً بمفهومه الكاسد ، و بضاعته المزجاة . ومنهم ذئاب تظاهروا بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لنيل حطام الدنيا وأغراضها . نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة فى الدنيا والآخرة .

ومن نهى عما له قد ارتكب ‏ ‏ فقد أتى مما به يقضى العجب
فلو بدأ بنفسه فذادها ‏ ‏ عن غيها لكان قد أفادها

قوله ومن أى : أى إنسان نهى الخلق عما : أى الشىء الذى له : أى كذلك الشىء الذى نهى عنه قد ارتكب وفعله وخالف قوله عمله من فعل المحظور ،

وترك المأمور ، فقد أتى من قاله وحاله مما : أى من العمل الذى به : أى منه يقضى ـ بالبناء للمفعول ـ والعجب : نائب الفاعل . أى يقضى العقلاء وأهل العلم والحزم من مخالفة قوله لعمله العجب : أى يحكمون و يقطعون بالعجب .

قال بعض السلف : إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهى ، فإذا أمرت بشىء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به ، و إذا نهيت عن شىء فكن أول المنتهين عنه . قال تعالى حكاية عن شعيب أنه قال لقومه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ فلو بدأ ذلك الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر قبل أمره ونهيه لغيره بنفسه فذادها : أى منعها وردها . عن غيها : أى عن ضلالها . والغى : الضلال والإنهاك فى الباطل لكان ببدايته بإرشاد نفسه وردها عما هى فيه من ارتكاب مهاوى الهوى والضلال ، والغى والوبال قد أفادها النجاة ، والرشد والسلامة ، وفى هذا المعنى قال أبو الأسود :

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام من الضنا ... كى يشتفى منه وأنت سقيم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم

ولقد أحسن أبو العلاء بقوله :

رويدك قد غررت وأنت حُرٌّ ... بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ... ويشربها على عمد مساءَ
يقول لكم غدوت بلا كساء ... وفى لذاتها رَهَن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى ... فمن جهتين لا جهة أساء

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة فى ذكر الأدلة وما يتعلق بها . وهى قسمان : مفردات ، ومركبات .

فالدليل المفرد : كالعالم الذى يمكن التوصل بصحيح النظر والتأمل فى أحواله إلى وجود الصانع والمركب ، كقولنا العالم ممكن ، وكل ممكن يحتاج فى وجوده إلى مؤثر ، وهذا عند الأصوليين .

وأما عند المناطقة : فلا تكون إلا مركبة ، وقد وضحت ذلك فى حواشى رسالة الآداب(١) قال الناظم رحمه الله تعالى :

مدارك العلوم فى العيان محصورة فى الحد والبرهان

وقال قوم عند أصحاب النظر حس وأخبار صحيح والنظر

قوله : مدارك العلوم : المدارك جمع مدرك – بضم الميم – مصدر ميمى بمعنى الإدراك مصدر أدرك الشىء بالشىء ، حاول إدراكه به . والإدراك وصول النفس إلى المعنى بتمامه ، والمراد المدرك بالعقول . والعلوم : جمع علم ، وهو حصول صورة الشىء فى الذهن . وينقسم إلى قسمين : تصور وتصديق ، وكل منهما إما ضرورى أو نظرى ، فالتصور حصول صورة الشىء فى الذهن من غير حكم عليه بنفى ولا إثبات كإدراك الإنسان ، والتصديق: إدراك أن النسبة واقعة ، أو ليست بواقعة . أى الإذعان لذلك كإدراك أن زيداً كاتب ، أو ليس بكاتب ، وما أوصل إلى التصور يسمى قولا شارحاً ومنه الحد ، وماأوصل إلى التصديق يسمى حجة ، ومنه البرهان فى العيان : أى المشاهدة محصورة فى شيئين : فى الحد ويكون تاماً

---

(١) يعنى رسالة فى آداب البحث والمناظرة فللمصنف حاشية على تلك الرسالة مفيدة .

وناقصاً على ما سيأتى ، وفى البرهان وهو الحجة والدليل . وفى الحديث « الصدقة برهان » .

قال العلامة ابن رجب : البرهان : هو الشعاع الذى يلى وجه الشمس ، ومنه حديث أبى موسى: «إن روح المؤمن تخرج من جسده لها برهان كبرهان الشمس» ومنه سميت الحجة القاطعة برهاناً لوضوح دلالتها على ما دلت عليه ، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان : أى إيمان صاحبها لطيب نفسه بإخراجها ، والبرهان عند علماء المنطق قياس مؤلف من مقدمات يقينية لإنتاج اليقين الذى هو اعتقاد حازم مطابق للواقع ممتنع التغير .

وقال قوم : بل مدارك العلوم عند أصحاب النظر : أى الفكر والتدقيق ، والبحث والتحقيق ، والنظار من المتكلمة والمنطقيين ، وعلماء الأصول ثلاثة :

أحدها : حس . أى ما يدرك بأحد الحواس الخمس ، وهى جمع حاسة بمعنى القوة الحاسة أى : السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس .

والثانى : إخبار صحيح ثابت رجيح مطابق للواقع وهو نوعان :

أحدهما : المتواتر الثابت على السنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب ، ومصداقه وقوع العلم من غير شبهة ، وهو موجب للعلم الضرورى ، كالعلم بالملوك الماضية ، والأمم الفانية ، والبلدان النائية ، كوجود مكة و بغداد .

والثانى : خبر الرسول المؤيد بالمعجزة الخارقة المقرونة بالتحدى ، فيوجب العلم الاستدلالى ، و إنما كان استدلالياً لتوقفه على الاستدلال ، واستحضار أنه خبر من ثبتت رسالته بالمعجزة ، وكل خبر هذا شأنه فهو صادق ، و مضمونه واقع ، والعلم الثابت بخبر الرسول يشابه الثابت بالضرورة ، كالمحسوسات والمتواترات فى التيقن والثبات .

والثالث : النظر . أى الفكر الذى يطلب به علم أو ظن ، وهو ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى مجهول . والحاصل أن أسباب العلم ثلاثة : الحواس السليمة ، والخبر الصادق ، والعقل .

فالحد وهو أصل كل علم　　　وصف محيط كاشف فافتهم

قوله : فالحد . أى إذا علمت ما تقدم من التمهيد ، وطلبت تعريف الحد ، فالحد فى اللغة: المنع ، ومنه سمى البواب حداداً ؛ لأنه يمنع من يدخل الدار ، وسمى التعريف حد المنعة الداخل فيه من الخروج عنه ، والخارج عنه من الدخول فيه .

وقوله : وهو أصل كل علم . جملة معترضة بين المبتدأ الذى هو الحد ، والخبر الذى هو وصف محيط ، وإنما كان أصلا للعلوم ؛ لأن من لايحيط به علما لا ينتفع بما عنده ، والحد فى الاصطلاح : وصف محيط بموصوفه . كاشف : أى مميز للمحدود عن غيره . فافتهم : أمر بالفهم من باب الافتعال ، وبنائه للمطاوعة غالبا نحو فهمته فافتهم ، والفهم إدراك معنى الكلام بسرعة ، وأسقط هذا القيد بعض العلماء ؛ لأن من سمع كلاما ولم يدرك معناه إلا بعد شهر أو أكثر يقال له : فهمه ، ولكن السرعة قيد فى الفهم الجيد ، وقيل : الفهم جودة الذهن من جهة تهيئة لاقتباس ما يرد عليه من المطالب ، والذهن قوة النفس المستعدة لاكتساب الحدود والآراء .

وشرطه طرد وعكس وهو أن　　　أنبا عن الذوات فالتام استبن

وإن يكن بالجنس ثم الخاصه　　　فذاك رسم فافهم المحاصه

قوله : وشرطه . أى شرط كون الحد صحيحا . طرد : أى كلما وجد الحد وجد المحدود ، فلا يدخل فيه شىء من أفراد غير المحدود فيكون مانعا . وعكس : أى كلما وجد المحدود وجد الحد ، فلا يخرج عنه شىء من أفراد المحدود ، فيكون

جامعا ، وترتيب المنع على الاطراد والجمع على الانعكاس هو مذهب الجمهور ، وعكس ذلك بعض العلماء . وهو : أى الحد . أن أنبا : أى دل وكشف عن الذوات . أى ذاتيات المحدود الكلية المركبة . إما مطابقة كقولنا فى تعريف الإنسان: جسم نام حساس متفكر بالقوة ، أو تضمنا نحو : حيوان ناطق ، أو مطابقة فى البعض وتضمنا فى البعض ، نحو : جسم نام حساس ناطق ، أو حيوان متفكر بالقوة فهو الحقيقى التام ، ويكون الحد التام هو الذى يذكر فيه جميع الذاتيات لا يكون للشىء الواحد حدان تامان ، وقيل : بلى والخلاف مشهور ، ويشترط فى تمام الحد تقديم الجنس على الفصل ، فلو أخر الجنس عن الفصل كان حداً ناقصاً .

وقوله : استبن . تتمة للبيت وفيه الأمر بطلب البيان ، والكشف عن حقيقة الحد ، وقد ذكر الحد التام ، وأما الناقص فهو الذى لم يذكر فيه جميع الذاتيات، ويكون بالفصل وحده إن قلنا بجواز التعريف بالمفرد ، كقولنا : ناطق فى تعريف الإنسان ، أو بالجنس البعيد ، والفصل القريب كجسم ناطق فى تعريفه أيضا وإن يكن الحد مركبا بالجنس : أى من الجنس القريب ثم الخاصة ، كحيوان ضاحك فى تعريف الإنسان . فذاك : أى المركب من الجنس القريب والخاصة رسم تام ، أما كونه رسما ؛ فلأن الرسم لغة : الأثر والخاصة من آثار الحقيقة الدالة عليها ، وأما كونه تاما فلمشابهة الحد التام من حيث أنه وضع فيه الجنس القريب ، وقيد بأمر مختص ، ويشترط فى تمام الرسم تقديم الجنس على الخاصة ، فلو أخر الجنس عن الخاصة كان رسما ناقصا ، وأما الرسم الناقص فهو ما يكون بالخاصة فقط ، كقولنا : ضاحك فى تعريف الإنسان إن قلنا بجواز التعريف بالمفرد ، أو بالجنس البعيد ، والخاصة نحو : الإنسان جسم ضاحك . أما كونه رسما فلما مر ، وأما كونه ناقصا فلعدم ذكر جميع أجزاء الرسم التام ، والخاصة تكون للجنس

كالمشى للحيوان ، وتكون للنوع كالضحك للإنسان ، وكل خاصة نوع خاصة لجنسه ولا عكس ، وتكون لازمة ومفارقة كالضاحك بالقوة ، والفعل للإنسان فافهم المحاصه - بضم الميم فحاء مهملة فألف فصاد مدغمة فى مثلها المقاسمة - والمراد : افهم التقسيم المذكور للحد والرسم وكون كل منهما تاما وناقصا لتكون على بينة من ذلك . والله أعلم .

تنبيـــــه

ما ذكره الناظم هنا بعض الكليات الخمس التى هى مبادىء التصورات ، ونذكرها جميعها على سبيل الاختصار الكلى هو الذى لا يمنع نفس تصور مفهومه من وقوع الشركة فيه ، والكليات خمس ووجه الحصران الكلى ، إما أن يكون تمام الماهية أو جزء لها أو عرضا لها .

الأول : النوع كالإنسان .

والثانى : إن كان مساوياً لها فالفصل كالناطق أو أعم منها ، فالجنس كالحيوان .

والثالث : إن خصها فالخاصة وإلا العرض العام ، وبقية التفصيل يطلب من محله فى كتب المنطق ، وفيما ذكرناه كفاية للتنبيه .

وكل معلوم بحس وحجى   فنكره جهل قبيح فى الهجا
فإن يقم بنفسه فجوهر   أولا فذاك عرض مفتقر
والجسم ما ألف من جزئين   فصاعدا فاترك حديث المين

قوله : وكل معلوم بحس . أى من الحواس الخمس الظاهرة التى لاشك فيها ولا آفة تعتريها . فإنكاره قبيح جداً، إذ هو مجرد مكابرة، كقولنا: الشمس مشرقة ، والنار محرقة ، وهل الحواس الخمس تستقل بالإدراك أو لابد فى إدراكها من العقل قولان ، ويدل للأول : أن البهائم تدرك بحواسها ولا عقل لها ، ويدل

للثانى : أن الإنسان إذا نام وانفتحت عيناه لايدرك شيئا ، وذهب قوم إلى أن الحس لايفيد يقينا لغلطه فى أمور والرد عليهم فى ذلك معلوم مشهور ، وكذا مايدرك بحجى كالى هو العقل فنـكره : أى إنكاره ورده بعدم الوثوق به . جهل قبيح : متناه فى القبيح . فى الهجا : أى فى الشـكل والمثل ، يقال : هذا على هجا هذا : أى على شكله . أى قبيح فى العادة المستمرة ومردود عند أهل التحقيق .

قال العلامة نجم الدين بن حمدان فى نهاية المبتدئين : كل مؤد إلى حقيقة ثابتة تعلم عقلا أو حسا ، فإنـكاره سفسطة . انتهى . فإن يقم ذلك الشيء بنفسه : أى بذاته ، ومعنى قيامه بذاته عند المتـكلمين أن يتحيز بنفسه غير تابع تحيزه لتحيز شيء آخر . وعند الفلاسفة : معنى قيام الشيء بذاته استغناؤه عن محل يقومه، فلا يخلو القائم بنفسه من أحد أمرين : إما أن يكون مركبا من جزئين فصاعدا ــ وهو الجسم كما يأتى الـكلام عليه ــ أو غير مركب . فإن قام بنفسه وكان غير مركب من جزئين فهو جوهر ، والجوهر : ما شغل حيزاً وقام بنفسه وحمـل بعض الأعراض ، ولم يقبل انقساما لا فعلا ولا وهما ولا فرضاً ، وهو الجزء الذى لايتجزأ . وعند الفلاسفة: لا وجود للجوهر. الفرد : أى الجزء الذى لايتجزأ . ووافقهم كثير من المحققين كما تقدم فى الباب الأول . وزعمت الفلاسفة أن الجسم متركب من الهيولى والصورة أو لا يقوم بنفسه . فذاك الذى لايقوم بنفسه عرض مفتقر إلى محل يقوم به ويحمله .

قلت : تقسيم المعلوم[1] إلى جوهر وعرض ، هو ما عليه أكثر الفلاسفة ، وقد أثبت بعضهم قسما ثالثاً ليس بجوهر ولا عرض ، وسموه بالجوهر المجرد لتجرده عن المادة وعلائقها ، وجعلوا منه العقول العشرة ، وأيضا تقسيم المعلوم إلى جوهر وعرض ، إنما المراد به المعلوم الحادث . والأعراض تسعة والجوهر واحد ، ويسمى المجموع المقولات العشر . وقد نظمها بعضهم بقوله :

---

(١) المراد به : المعلوم الحادث .

زيد الطويل الأزرق بن مالك   فى بيته بالأمس كان متكى

بيده غصن لواه فالتوى   فهذه عشر مقولات سوى

فزيد : إشارة إلى مقولة الجوهر . والطويل : لمقولة الكم . والأزرق : لمقولة الكيف . وابن مالك : لمقولة الإضافة . وفى بيته: لمقولة الأين . وبالأمس : لمقولة المتى . وكان متكى: لمقولة الوضع . و بيده غصن: لمقولة الملك . ولواه: لمقولة الفعل . فالتوى : لمقولة الانفعال . والثلاثة الأول : أمور وجودية عند المتكلمين والحكماء ، والسبعة الأخيرة من الأمور الوجودية عند الحكماء ، ومن النسب والإضافات عند المتكلمين ، وتحقيق ذلك يعلم من كتب الحكمة ، والجسم ما : أى شىء . أو الذى ألف : أى ركب من جزئين . فصاعدا : أى أكثر ـ يعنى : ذاهبا إلى جهة الصعود والارتفاع عن اثنين ، فيكون أقل ما يتركب من جزئين ، ولا حد للكثرة . فاترك حديث : أى كلام المين : أى الكذب . وأراد بهذا الرد على من قال : إنه لا يتركب من أقل من ثلاثة ، وعلى من قال : إنه لا يتركب من أقل من ثمانية ، وعلى النظام القائل : إن الجسم مؤلف من أعراض اجتمعت .

ومستحيل الذات غير ممكن   وضده ما جاز فاسمع زكنى

والضد والخلاف والنقيض   والمثل والغيران مستفيض

وكل هذا علمه محقق   فلم نطل به ولم ننمق

قوله : ومستحيل الذات غير ممكن . أى المستحيل لذاته غير ممكن ولا مقدور ، إذ لو تعلقت به القدرة لصار ممكنا ؛ لأنها لا تتعلق إلا بالممكنات كما سبق . وضده : أى ضد المستحيل . ما : أى الذى جاز وجوده وعدمه . فالحاصل أن الواجب مالا يتصور فى العقل عدمه ، والمستحيل مالا يتصور فى العقل وجوده ، والممكن ما جاز وجوده وعدمه ـ يعنى قبل إيجاده ـ وتقدم الكلام على ذلك

فى الباب الأول . فاسمع زكنى : أى علمى . قال فى القاموس : زكنه كفرح وازكنه علمه ، وفهمه ، وتفرسه ، وظنه ، أو الزكن ظن بمنزلة اليقين عندك . والضد ـ يعنى : مع ضده فالضدان هما ما امتنع اجتماعهما فى محل واحد فى زمن واحد كالسواد والبياض ، والحركة والسكون ، والخلاف : أى الخلافان يجتمعان ويرتفعان ، كالحركة والبياض فى الجسم الواحد . والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، كالوجود والعدم المضافين إلى معين واحد . والمثلان : ما قام أحدهما مقام الآخر وسد مسده ، كبياض و بياض .

وأما المتشابهان : فهما اللذان يتقاربان إما فى الصورة ، و إما فى المعنى ، و إما فى السبب الذى تعلق به وجودهما ، ونحو ذلك مما تقع به المشابهة . والغيران : هما المختلفان . وقيل : هما الموجودان اللذان يمكن أن يفارق أحدهما الآخر بوجه ، وكل علم ذلك محقق عند أهل هذا الفن ، وعند المناطقة مستفيض استفاضة ظاهرة لا تخفى على أحد له اعتناء بتحصيل هذه العلوم العقلية ، وما ذكره الناظم فى هذين البيتين هو بعض ما ذكره ابن حمدان فى آخر النهاية ، ونذكره هنا نقلا عن مختصر النهاية المسمى : [قلائد العقيان] للعلامة البلبانى قال رحمه الله :

فصـــــل

المعلومات : إما نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وخلافان يجتمعان ويرتفعان ، أو ضدان لا يجتمعان ويرتفعان لاختلاف الحقيقة ، أو مثلان لا يجتمعان ويرتفعان لتساوى الحقيقة ، وكل شيئين حقيقتاهما إما متساويتان يلزم من وجود كل وجود الأخرى وعكسه ، أو متباينتان لا يجتمعان فى محل واحد ، أو إحداهما أعم مطلقا ، والأخرى أخص مطلقا توجد إحداهما من وجود كل أفراد الأخرى بلا عكس ، أو إحداهما أعم من وجه والأخرى أخص من وجه توجد كل مع الأخرى و بدونها . انتهى . ولم يذكر الغيرين اكتفاء بذكر

الخلافين ، وقد يتعذر ارتفاع الخلافين لخصوص حقيقة كونهما خلافين ، كذات واجب الوجود ـ تعالى وتقدس مع صفاته ـ وقد يتعذر افتراقهما كالخمسة مع الفردية ، والجوهر مع الألوان ونحو هذا وهو كثير ، لكن لا تنافى بين إمكان الافتراق والارتفاع بالنسبة إلى الذات ، وتعذر الارتفاع بالنسبة إلى أمر خارجي عنها ، وهذا الذى ذكرناه كله بالنسبة إلى ممكن الوجود .

أما الله تعالى وصفاته ، فلا يقال بإمكان رفع شيء منها لتعذر رفعه بسبب وجوب وجوده . وكل هذا المذكور وأضعافه مما لم يذكر علمه مشهور عند المحصلين محقق ، وحيث كان كذلك فلنقتصر على هذا المقدار الذى ذكرناه . فلم نطل به : أى بذكره. ولم ننمق : من التنميق وهو التحسين والتزيين ، إذ المقصود : إنما هو ذكر أمهات مسائل العقائد السلفية ، وقد ذكر الناظم منها ما يُروِ الغليل ، ويشفى العليل ـ رحمه الله تعالى ـ ثم ختم أرجوزته بحمد الله تعالى ، كما بداها به إلا أن بين الحمدين فرقاً .

فالأول : حمد لذات الله تعالى وجميل صفاته .

والثاني : حمد لمقابلة النعمة العظيمة التى هى الإعانة على إكمال ما أراده فقال :

والحمد لله على التوفيـــق لمنهج الحق على التحقيق

مسلما لمقتضى الحديث والنص في القديم الحديث

لا اعتنى بغير قول السلف موافقاً أئمـــتى سلفى

قوله : والحمد لله على التوفيق . تقدم فى أول الكتاب معنى الحمد ، والفرق بينه وبين الشكر والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك ، والخذلان ضده ، وهو أن يخلى بينك وبينها . لمنهج : أى طريق الحق الذى هو الحكم المطابق للواقع . على التحقيق : وهو إيقاع الأشياء فى محالها وردها إلى حقائقها مسلما حال من

معمول التوفيق : أى الحمد لله على توفيقى لمنهج الحق حال كونى مسلما . لمقتضى الحديث : أى لما يقتضيه الحديث الصحيح الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما الأحاديث الضعيفة إما لضعف رواتها أو جهالتهم أو لعلة فيها ، فلا يجوز أن يقال بها ولا اعتقاد ما فيها ، بل وجودها كعدمها كما صرح بذلك الإمام الموفق وغيره . والنص الصريح : أى القرآنى ، وقد قدم الحديث مراعاة للقافية ، وفى نسخه كالنص فحينئذ النص هو المقدم فى القديم والحديث ـ يعنى : أن هذا معتقده فى أول أمره وآخره ، فهو ـ رحمه الله ـ من أول نشأته سلفى الاعتقاد معتصم بحبل الله قولا وعملا واعتقاداً . لا اعتنى : أى لا أعول ولا يهمنى ولا يغنينى ، ولا أقول بغير قول السلف وهم : النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأفضل الأصحاب : الخلفاء الراشدون الذين حض صلى الله عليه وسلم على اتباعهم بقوله : « فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور . فإن كل بدعة ضلالة » ومن السلف : الأئمة المجتهدون الذين يقولون الحق ، وبه كانوا يعدلون ، ثم من تبعهم بإحسان وقفى أثرهم عاملا بطريقتهم إلى آخر الزمان ، لم يغير ولم يبدل ما كانوا يقولون ويعتقدون ، وهؤلاء هم الذين أراد عليه الصلاة والسلام بقوله : « ما أنا عليه اليوم وأصحابى » .

قال الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله سره ـ فى التقوى الحموية : بعد كلام مهم مفيد ، ولا يجوز أن يكون الخالفون أعلم من السالفين ، كما يقوله بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف ، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، فإن هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده فى غاية الجهالة ، بل فى غاية الضلالة . كيف يكون هؤلاء المتأخرون ؟ لا سيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر فى باب الدين اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم

وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم حيث يقول :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وقال : فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ، ومن حذا حذوهم على طريقة السلف ، إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هى مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقد لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ ومنهم أُميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ ﴾ . وأن طريقة الخلف هى استخراج معانى النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات ، وغرائب اللغات ، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التى مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر ، وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا فى تصويب طريقة الخلف ، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف فى الكذب عليهم ، و بين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف .

قلت : و بهذا الكلام تعلم خطأ من قال : إن مذهب السلف هو تفويض المعنى المراد من الآيات والأحاديث الدالة على الصفات الإلٰهية ، مع تنزيهه سبحانه وتعالى عن الجارحة . وهذا هو التأويل الإجمالى . ويُنشد على ذلك بيت اللقانى :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

فقد برأ الله تعالى السلف من هذين القولين اللذين لم يقم عليهما دليل ، و إنما قام على خلافهما . وأما قوله مع تنزيهه تعالى عن الجارحة فهو حق لا ينازع فيه مسلم ، وقد دل عليه القرآن قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ فمذهب السلف إنما هو الإثبات لا التفويض الذى هو أول درجات التعطيل .
وقد قال الناظم فيما سبق :

- فعقدنا الإثبات يا خليلي   من غير تعطيل ولا تمثيل

وهذا هو معنى كلام الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ حيث قال فى جواب من سأله عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، فلو كان مذهب السلف التفويض لكان الاستواء مجهولا لا معلوماً ، كما قاله إمام دار الهجرة . وما أحسن ما قيل :

فيالك من آيات حق لو اهتدى   بهن مريد الحق كن هواديا

ولكن على تلك القلوب أكنة   فليست وإن أصفت تجيب المناديا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فى الفتاوى الحموية : وكانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم ، واعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين من العامة ، لم يتبحروا فى حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهى ، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق فى هذا كله ، ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده فى غاية الجهالة ، بل فى غاية الضلالة . ثم أطال شيخ الإسلام الكلام بما يملأ القلب نوراً وإيماناً كعادته ـ رضى الله عنه ـ فالحاصل أن الناظم من أول نشأته سلفى الاعتقاد ، كما قال موافقاً أئمتى من أهل الأثر ، وسلفى فى ذلك من كل إمام همام .

ولست في قولى بذا مقلد   إلا النبى المصطفى مبدى الهدى

صلى عليه الله ما قطر نزل   وما تعانى ذكره من الأزل

وما انجلى بهديه الدَّيجُور   وراقت الأوقات والدهور

قوله : ولست فى قولى بذا : أى بما أشرت إليه من اقتفاء الأئمة مقلداً لهم فى اعتقادى من غير نظر فى الدليل ، بل نظرت كما نظروا وسبرت كما سبروا .

قلت : وهذه طريقة العلماء والفضلاء يتتبعون الأدلة ، ويتعرفون مآخذ العلماء،

سواء فى ذلك ما يتعلق بالاعتقاد أو العمل ، و بحثهم عن الدليل لم يخرجهم عن كونهم مقلدين ، بل هم بأنفسهم يعترفون بالتقليد للأئمة المجتهدين ـ رضى الله تعالى عنهم ـ فى المسائل الفرعية .

وأما الأمور الاعتقادية فلا يجوز فيها تقليد أحد إلا النبى المصطفى من سائر العالم . مبدى : أى مظهر الهدى بالدلائل الواضحة صلى عليه الله تعالى . ما قطر نزل : أى مدة دوام نزول الأمطار وصلى وسلم عليه ما تعانى المعتنون ذكره من الأزل فى الأعصار الخالية ، فإنه لم يخل زمان من ذكره والتنويه بشرعه ومبعثه ، إلى أن جاء إبَّانُ رسالته، فظهرت شمس نبوته على سائر كواكب النبوات، فانخسفت وبهرت رسالته سائر المقالات فانطمست وصلى الله وسلم عليه . ما انجلى : أى تفرق وزال وانكشف بهديه المشرق اللامع . الديجور : أى الظلمة وما بهديه عليه الصلاة والسلام . راقت : أى صفت . الأوقات : جمع وقت وهو المقدار من الدهر ، وأكثر ما يستعمل فى الماضى وما راقت الدهور : جمع دهر ، وهو الزمان الطويل والأمد الممدود .

وآله وصحبه أهل الوفا   معادن التقوى وينبوع الصفا

وتابع وتابع للتابع   خير الورى حقاً بنص الشارع

قوله : وآله . أى وصلى الله وسلم على آل النبى المصطفى . أى أتباعه على دينه كما هو اختيار الإمام أحمد فى مقام الدعاء . وقيل : أقاربه الأدنون من بنى هاشم وبنى المطلب ، وهو اختيار الإمام الشافعى وصحبه ، وهم كل من اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على الإيمان . وقد تقدم تعريف الصحب والآل فى أول الكتاب . أهل : أى أصحاب . الوفا : أى الوافين بما أُمروا به . معادن التقوى : المعادن جمع معدن ـ بكسر الدال ـ قال الأزهرى : سمى معدناً لعدون ما أنبته الله فيه ـ أى لإقامته فيه ـ وأحرى خلق الله تعالى بإقامة التقوى فيهم

بعد أنبياء الله ورسله ، هم أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . والتقوى : التحرز بطاعة الله تعالى عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه ، وقد تقدم تعريفها بأبسط من هـذا . وينبوع الصفا : الينبوع ـ بفتح التحتية ، وسكون النون ، وضم الموحدة ، و بعدها واو ساكنة ، فعين مهملة ـ عين الماء أو الجدول الكثير الماء كما فى القاموس . والصفا . ضد الكدر : فالصحابة الكرام ينبوع كل خالص من الكدر ، نقى من غبار البدع ، فمن ورد موردهم شرب زلالا صافياً ، ومن زل عن نهجهم شرب ملحاً أجاجاً قذراً ، وصلى الله تعالى وسلم على تابع لهم بإحسان ، وتابع للتابع على نهج الاستقامة والاتقان وهؤلاء القرون الثلاثة . خير الورى : أى الخلق ، والمراد : أنهم أفضل هذه الأمة . حقاً: مصدر منصوب بفعل محذوف تقديره أحق ذلك حقاً بنص الشارع ـ يعنى : النبي صلوات الله وسلامه عليه . وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

قال عمران بن حصين : فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة . رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، وفى حديث أبى هريرة عند مسلم: « خير أمتى القرن الذى بعثت فيه » ولهذا المعنى قال :

ورحمة الله مع الرضوان   والبر والتكريم والإحسان
تهدى مع التبجيل والإنعام   منى لمثوى عصمة الإسلام
أئمة الدين هداة الأُمة   أهل التقى من سائر الأَئمة

قوله : ورحمة الله تعالى مع الرضوان : أى من الله تعالى . والبر : أى الشفقة والإحسان والتكريم لهم من فضله العميم ، والإحسان إليهم من الله تعالى ؛ لأنهم أحسنوا عملا ، وأخلصوا قولا وفعلا ، فيجازيهم بالإحسان لقوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ . تهدى ـ بضم المثناة ـ أى هذه الأمور . مع

التبجيل : أى التعظيم والإنعام من الملك المنعم المهيمن السلام . منى : أى بأن أسأل الله تعالى أن يفعل ذلك بمنه وكرمه . لمثوى : أى منزل ، ومقام عصمة أهل الإسلام من البدع المضلة ، والعصمة : المنعة . والعاصم المانع . والاعتصام : الاستمساك بالشىء . أئمة أهل هذا الدين المتين هداة الأمة لدلالتهم إياها على نهج الرسول ، وكشفهم لهم عن معانى الكتاب والسنة .

لا سيما أحمد والنعمان ومالك محمّد الصنوان

قوله : لاسيما . هذه الكلمة ليست من كلمات الاستثناء حقيقة ، لكن ذكروها فى بابه ؛ لأن مابعدها مخرج مما قبلها من حيث أولويته بالحكم مما قبله ، ولا: نافية للجنس . وسى بمعنى مثل اسمها ، وما : بمعنى الذى . فما بعدها خبر لمحذوف وجوباً لمشابهة لا سيما إلا ، وهى لا تقع بعدها الجملة . ولهذه المشابهة جاز حذف صدر صلة ما هنا ، ولو لم تطل أو نكرة موصوفة ، وخبر لا محذوف . فإذا قلت : جاءنى القوم ولا سيما زيد ، فالمعنى ولا مثل الذى أو رجل هو زيد موجود بين القوم الذين جاءونى : أى بل هو أخص بى وأشد إخلاصاً فى المجىء إلىّ ، ويجوز جعل ما زائدة وجرّ ما بعدها بإضافة سى إليه وجعلها نكرة تامة ونصب مابعدها تمييزاً لها إن كان نكرة ، وكذا إن كان معرفة على مذهب من يجوز تعريف التمييز ، أو مفعولا لفعل محذوف وجوباً تقديره أعنى ، والواو الداخلة عليها فى بعض المواضع اعتراضية ، إذ لا سيما مع ما بعدها جملة مستقلة . أحمد : ابن محمد بن حنبل الشيبانى سيدنا وإمامنا ، وتقدمت ترجمته فى صدر الكتاب . والنعمان : معطوف على ما قبله ، وهو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى إمام أهل العراق ، وفقيههم بالاتفاق ، وإمام أصحاب الرأى . وقد أثنى عليه الأئمة الكبار منهم عبد الله ابن المبارك حيث قال :

لقد زان البلاد ومن عليها إمام المسلمين أبو حنيفه

بأحكام وآثار وفقه ... كآيات الزبور على صحيفه
فما فى المشرقين له نظير ... ولا فى المغربين ولا بكوفه
يبيت مشمراً سهر الليالى ... وصام نهاره لله خيفه
فمن كأبى حنيفة فى علاه ... إمام للخليقـــة والخليفه
وقد قال ابن إدريس مقالا ... صحيح النقل فى حكم لطيفه
بأن الناس فى فقه عيال ... على فقه الإمام أبى حنيفه
وصان لسانه عن كل إفك ... وما زالت جوارحه عفيفه
يعف عن المحارم والملاهى ... ومرضاة الإله له وظيفه

وهو –رحمه الله تعالى– من أبناء فارس، ولهذا يقول بعض الفضلاء فى مدحه :

يا من علا فى الاجتهاد مناره ... وبدر مذهبه غلا مقداره
لله درك من إمام أعظم ... يُعزى إلى كسرى الملوك نجاره

ولد رضى الله عنه سنة ثمانين ، وتوفى سنة مائة وخمسين رحمه الله تعالى .

ومالك – بالجر والتنوين – معطوف على ما قبله ، وهو الإمام السالك أحسن المسالك إمام دار الهجرة مالك بن أنس بن عامر التيمى ، وكنيته أبو عبد الله. ولد فى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة أربع ، وقيل : سنة ثلاث وتسعين. ومناقبه جمة أفردت بالتأليف وثناء الأئمة عليه . معروف مشهور أخذ الرواية عن تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين ، والبقية من أتباع التابعين ، ولقد أحسن الحافظ السَّلَفِىُّ إذ يقول فى مدح أبى عبد الله الإمام مالك رحمه الله :

إمام الورى فى الشرع بالشرق مالك ... وبالغرب أيضاً فى جميع الممالك
فمن يك سنياً وللشرع تابعاً ... وللعلم طلاباً غليه بمالك

ولما حضرته الوفاة تشهّد ، ثم قال : لله الأمر من قبل ومن بعد ، فتوفى — رضى الله عنه — سنة تسع وسبعين ومائة بالمدينة الشريفة وعمره خمس وثمانون سنة ، ودفن بالبقيع — رحمه الله — ومحمد : معطوف على ماقبله بإسقاط حرف العطف لإقامة الوزن . الصنوان : أى القرابة للنبى صلى الله عليه وسلم فهو — رضى الله عنه — محمد بن إدريس ابن العباس المطلبى الشافعى . يجتمع نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف . ولد سنة خمسين ومائة ، وكان جم المفاخر ، منقطع النظير ، اجتمع فيه من العلوم بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وأقوال الصحابة ، وآثارهم وأخبارهم وغير ذلك من معرفة كلام العرب ، واللغة العربية والشعر ، مالم يجتمع بغيره حتى قرأ عليه الأصمعى مع اشتهاده بهذا الشأن أشعار الهذليين .

وقال الإمام أحمد : عرفنا ناسخ القرآن ومنسوخه لما جالسنا الشافعى . قال الشافعى: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين ، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر . قدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة . فأقام شهراً ثم خرج إلى مصر ، وكان وصوله إليها سنة تسع وتسعين ومائة . قاله ابن خلكان . وكان الحميدى يقول : حدثنا سيد الفقهاء الشافعى . توفى — رحمه الله ورضى عنه — بمصر سنة أربع ومائتين فى شهر رجب .

من لازم لكل أرباب العمل   تقليد حبر منهم فاسمع تخل

قوله : من : أى الذين هم فهو مبتدأ . قال الشارح : خبره فرض لازم لا انفكاك عنه لكل واحد مكلف من أرباب : أى أصحاب العمل الصالح ممن ليس فيه أهلية الاجتهاد المطلق . تقليد حبر منهم : أى من الأئمة الأربعة . فاسمع نظامى وما أشرت إليه من لزوم كل مكلف لم يبلغ رتبة الاجتهاد تقليد أحد الأئمة الأربعة . تخل : أى تظن وتعلم ذلك حقا ، وإنما قال: لكل أرباب العمل،

ليحترز به عن التقليد فى عقائد التوحيد من معرفة الله تعالى ، ونعوت ذاته وصفاته والرسالة ، وكذا فى أركان الإسلام الخمسة ، وجميع المسائل العبادات : إذ لا يعبد الله إلا بما شرع ، فلا تقليد فى شيء من ذلك ، والتقليد لغة : وضع الشيء فى العنق ، وعرفا : أخذ قول الغير من غير معرفة دليله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فليس المصير إلى الاجماع تقليداً ؛ لأن الإجماع دليل ، ولذلك يقبل قول النبى صلى الله عليه وسلم ولا يقال : تقليد بخلاف فتيا الفقيه . وقد اختلف العلماء فى جواز التقليد فى المسائل الفروعية الشرعية ، فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه لا يجوز مطلقا .

قال الإمام الشوكانى فى إرشاد الفحول : قال القرافى : مذهب مالك ، وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد ، وإبطال التقليد ، وادعى ابن حزم الإجماع على النهى عن التقليد .

قال ابن حزم : فهہنا مالك ينهى عن التقليد ، وكذا الشافعي وأبو حنيفة . وقد روى المزنى عن الشافعى فى أول مختصره : أنه لم يزل ينهى عن تقليده وتقليد غيره .

وقال ابن عربى فى الباب الثامن والثمانين من الفتوحات والتقليد فى دين الله : لا يجوز عندنا لا تقليد حى ولا ميت . وقال فى شرح الإقناع عند قول الماتن فيما يشترط فى القاضى وأن يكون سميعاً بصيراً ناطقاً مجتهداً إجماعا . ذكره ابن حزم ؛ ولأنهم أجمعوا على أنه لا يحل الحاكم ولا لمفتٍ تقليد رجل لا يحكم ولا يفتى إلا بقوله ؛ لأن فاقد الاجتهاد إنما يحكم بالتقليد ، والقاضى مأمور بالحكم بما أنزل الله ؛ ولأن المفتى لا يجوز أن يكون عاميا مقلدا . فالحاكم أولى . قال : لكن فى الإفصاح : أن الإجماع انعقد على تقليد كل من المذاهب الأربعة ، وأن الحق لا يخرج عنهم . ثم ذكر أن الصحيح فى هذه المسألة أن قول من قال :

إنه لايجوز إلا تولية مجتهد ، فإنه إنما عنى به ما كانت الحال عليه قبل استقرار مااستقرت عليه هذه المذاهب .

وقال الإمام الموفق فى خطبة المغنى : النسبة إلى إمام فى الفروع كالأئمة الأربعة ليست بمذمومة ، فإن اختلافهم رحمة ، واتفاقهم حجة قاطعة . وقال أيضاً فى الروضة : وأما التقليد فى الفروع فهو جائز إجماعا ، وذهب جماعة من العلماء إلى التفصيل ، وهو أنه يجب التقليد على العامى و يحرم على المجتهد .

قال فى إرشاد الفحول : وبهذا قال كثير من أتباع الأئمة الأربعة . قال : ولا يخفاك أنه إنما يعتبر فى الخلاف أقوال المجتهدين وهؤلاء هم مقلدون ، وليسوا ممن يعتبر خلافه . أى لأنهم ليسوا من العلماء ، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد . منهم : ابن القيم فى النونية حيث قال :

وإذا دعوناكم إلى البرهان كا ن جوابكم جهلا بلا برهان
نحن المقلدة الأولى الفوا كذا آباءهم فى سالف الأزمان
قلنا فكيف تكفرون ومالكم علم بتكفير ولا إيمان
إذا أجمع العلماء أن مقلدا للناس كالأعمى هما إخوان
والعلم معرفة الهدى بدليله ما ذاك والتقليد مستويان

وقال فى فصل عقده لبيان الاستغناء بالوحى المنزل من السماء عن تقليد الرجال والآراء :

فالعلم أقسام ثلاث مالها من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذى هودينه وجزائه يوم المعاد الثان

والكل فى القرآن والسنن التى ... جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان

قلت : وما ذكره صاحب الإفصاح -وهو عون الدين أبوالمظفر يحيى بن هبيرة- من أن الإجماع انعقد على تقليد كل واحد من المذاهب الأربعة ، وأن الحق لايخرج عنهم ربما يَرِدُ عليه ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله فى بعض فتاويه : أما الثورى فله مذهب باق إلى اليوم بأرض خراسان. انتهى . وابن هبيرة متقدم على شيخ الإسلام ، فإنه توفى سنة ستين وخمسمائة ، وشيخ الإسلام توفى سنة سبعمائة وثمان وعشرين .

إذا علم هذا ، فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، وفهم معنى ذلك أن ينتهى إليه ويعمل به ، وإن خالفه من خالفه ، كما قال تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ الآية . وقال تعالى: ﴿ أوَلم يكفِهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى للمؤمنين ﴾ . ولا يخالف فى هذا إلا الجهال لجهلهم بالكتاب والسنة .

قال صدر الوزراء ابن هبيرة : إنه من مكائد الشيطان أن يقيم أوثانا فى المعنى تعبد من دون الله مثل أن يتبين له الحق . فيقول : هذا ليس بمذهبنا تقليد المعظم عنده قد قدمه على الحق .

وقد قال الإمام الشافعى كما فى فتح المجيد : أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد . قال فى شرح الإقناع : وفى المبدع قال أحمد فى رواية المروزى إذا سئلت عن مسألة لم أعرف فيها خبرا قلت فيها بقول الشافعى ؛ لأنه إمام عالم من قريش . وهذا يدل على أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم ، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفها لقول

إمام من الأئمة ، فالواجب عليه الأخذ بالحجة كما تقدم . والله أعلم .

ومن نحا لسبلهم من الورى ما دارت الأفلاك أو نجم سرى

هدية مني لأرباب السلف مجانبا للخوض من أهل الخلف

خذها هديت واقتفي نظامي تفز بما أملت والسلام

قوله : ومن نحا : أي ورحمة الله تعالى لمن نحا أي قصد . لسبلهم: جمع سبيل ، وهو الطريق الواضح . من سائر الورى : أي الخلق . ما دارت الأفلاك : أي مدة دوران الأفلاك . أو نجم سرى: أي وتهدى لهم الرحمة مدة دوام سرى النجم . هدية : أي هذه هدية . أي مهداة مني بعون الله تعالى . لأرباب : أي أصحاب مذهب السلف وعقيدة أهل الأثر حال كوني مجانبا في نظمي للخوض في التأويل العليل ، كما هو أدب المتنطعين من أهل مذهب الخلف المخالف لمذهب السلف . خذها : أي هذه العقيدة هديت في اعتقادك . واقتفي : أي اتبع نظامي ، فإنك إن فعلت ذلك تفز : أي تظفر . بما : أي بالذي أملت من الخير . وتظفر بالسلام : أي الأمان من التخليط في اعتقادك والخبط فيه خبط عشواء . وإلى هنا وقف جرى القلم حيث تم النظام .

فالحمد لله أولا وآخرا فهو الأول ، والآخر ، والباطن ، والظاهر ، وهو بكل شيء عليم . والصلاة والسلام على خير الأنام نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الكرام . وكان الفراغ من تبييضه ضحوة يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة سنة ألف وثلثمائة وأربع وثلاثين على يد جامعه الفقير إلى رحمة ربه : محمد بن عبد العزيز ابن مانع الحنبلي مذهبا ، والسلفي اعتقاداً . غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، آمين رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

تم بحمد الله طبع هذا الكتاب في غرة صفر ١٣٧٩

فهرس الكواكب الدرية

تمت وبالخير عمت